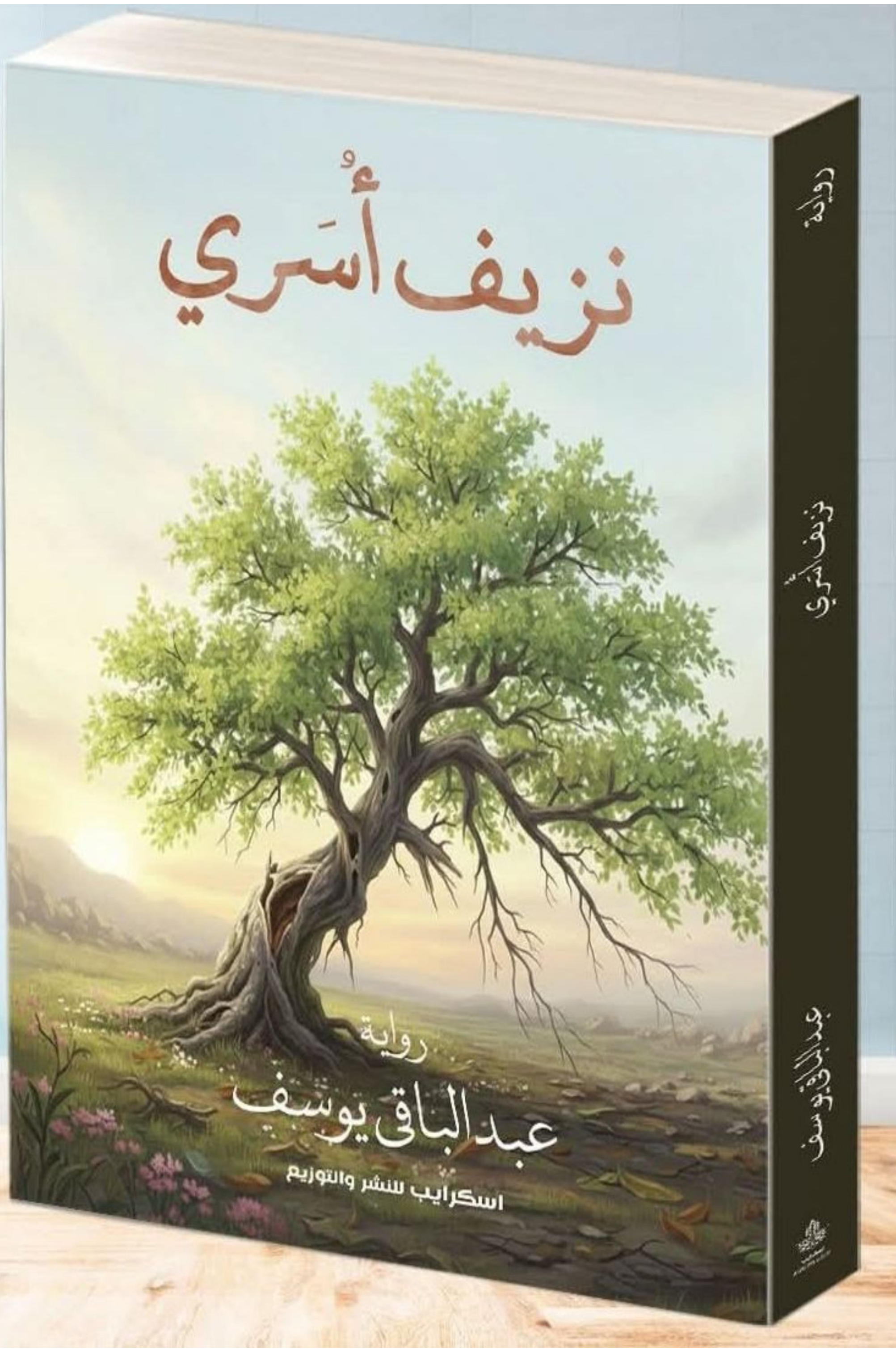
نزيف أسَري
رواية
عبد الباقي يوسف
اسكرايب للنشر والتوزيع
رواية
نزيف أسري
عبد الباقي يوسف

نزيف أُسَري

اسم الكتاب : نزيف أسَري
تأليف : عبد الباقي يوسف
إخراج فني : أسماء أبو المجد
التصنيف : رواية
الطبعة : الأولى 2025
رقم الإيداع : 2025/33893
الترقيم الدولي : 978-633-8275-67-9
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا
scribe20199@gmail.com
+201005079256
+201099727510
دار اسكرايب للنشر والتوزيع

SCRIBE
اسكرايب
للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

نزيف أُسَري

روايــــــة

عبد الباقي يوسف

اسكرايب
للنشر والتوزيع

الفصل الأول

نجوى

انفرجت عيناه ببطءٍ شديد، وما لبث أن أغلقهما في غضون ثوانٍ دون أن ينظر إلى شيءٍ، محاولاً العودة إلى النوم الذي كان مُستغرقاً في لفائفه على السرير ومتغطّياً إلى رقبته بلحافٍ سميك. لبث نحو ربع ساعة مغمض العينَين شارد الذهن، ثم فتح هو عينَيه هذه المرَّة، فركهما بالسبَّابة والإبهام، تفرَّس الفراغ بوجه ذابل، راوده شعورٌ بأن أرق العالَم كلّه استوطنَ جسده، أزاح اللحاف عَن جسده بحركةٍ آليّة، ومطّ ذراعَيه كمن يريد أن يُخرج نفسه من حفرةٍ، اتكأ على جنبه الأيمن في السرير. أحسّ بجفافٍ شديدٍ في فمه، مدَّ يده إلى إبريق الماء الزجاجي الذي كان يستقرّ على المنضدة بمحاذاة السرير، رشف مِنه عدَّة رشفات، وفي أثناء إعادته إلى موضعه، زلق الإبريقُ من يده على الأرض، أصدر صوتاً مُدويّاً، وتحوَّل إلى نُتَفٍ وشَظايا، وزحفَ الماءُ إلى أسفل السرير.

هاله المشهد، هكذا في ثوانٍ، تحوَّل كل شيءٍ رأساً على عقب بالنسبة للإبريق الذي كان منذ قليل مستقرّاً على المنضدة بشموخ وممتلئاً بالماء العذب. هي ثواني الغفلة ذاتها التي تجعل من طائرة تطير بألقٍ في الفضاء ساعات وساعات، وفي

جزءٍ من ثانية بحركةٍ غير منضبطةٍ ما، تتحوَّل إلى حُطام. من سيارة تمشي في الطريق بكامل أناقتها في كبد الطريق، والذين بداخلها يكونون بكامل لياقتهم وحيويتهم، وفي جزءٍ من ثانية، يقع لها حادث مريع، فتتحوَّل بمن فيها إلى حُطام.

نهض واقِفاً على قدمَيه، فانغرزت شظية صغيرة من الزجاج في مشط قدمه اليسرى، مشى بحذرٍ إلى غرفةٍ أُخرى وهو يتألَّم من أثر الشظيّة، حاول أن يسحبها بأظافره، لكنه لم يفلح، أتى بإبرةٍ وبعد عدّة محاولاتٍ استطاع أن يُخرجها برأس الإبرة، ثم انتعل شَحَّاطةً، وجمع الشظايا المتناثرة في الغرفة، ووضعها في سلة المهملات.

مشى شطر النافذة المشرفة على الشارع وهو يتثاءب ويُحاول أن يتخلَّص من حجم الأرق المستبدّ به جسدياً ونفسياً، أزاح الستارة عنها، كان الضوء قد بدأ بالانتشار في الأفق، والظلام يجرّ آخر ذيوله من الطرقات والأسطح. وكان الرعد يدمدم ويصدر صوتاً مدوياً دون مطر.

بعد قليلٍ من وقوفه أمام النافذة والنظر إلى الشارع، راودته رغبةٌ في احتساء فنجانٍ من القهوة، القهوة التي لم يذقها خلال عشرين سنة مضت، وتذكَّر للتو بأنّه كان قد نسيها، ولم يكن بوسعه أن يشرب في السجن سوى الشاي، وأحياناً عبوة

(بيبسي) كان يبتاعها من دكّان السجن في الساحة، ويجرعها في الساحة دون أن يُسمح له يأخذها معه إلى المهجع.

كح كحة خفيفة واستدار عائداً إلى المطبخ، صنع القهوة وعاد يجلس على الكرسي البلاستيكي الأحمر اللون، بمحاذاة النافذة ينظر من خلف الزجاج إلى الضوء الذي أخذ يتَّسع في انتشاره بعد أن انسحب الظلام تماماً دون أن يترك له أيّ أثر كأنّه لم يكن مُخيّماً خلال كل تلك الساعات الطويلة من الليل.

بعد رشفتَين متتاليتَين من الفنجان، مدّ يده وفتح درفة النافذة، فاندفع هواء لاذع البرودة إلى وجهه كأنّه كان واقفاً على النافذة منذ ساعاتٍ، بانتظار الدخول. قاوم نفحات الهواء وهو واقف على قدَمَيه يحتسي القهوة ويتأمَّل بعض القامات التي ترتدي ثياباً شتويّة دافئة وتمشي على الرصيف، وبعض السيارات التي تمضي في الطريق بتُؤدَةٍ كما لو أن الساعة المُبكّرة جداً من الصباح لا تسمح لها بالإسراع.

علت غُصَّةٌ إلى حَنجَرته، ترقرقت دموعٌ في مُقلتَيه وهو يشعر بأنّه سوف يخرج من كل هذه الحياة ولن يفتح عينَيه عليها ثانيةً، سوف تنقطع كل علاقة له بِها كأنّه لم يعش فيها خمساً وأربعين سنة.

انتابه شعورٌ بأنه تحوَّل إلى ورقة يابسة صفراء سقطت من شجرتها في فصل الخريف، فجرفتها الرياح، ولم يعد يربطها

شيءٌ بتلك الشجرة التي كانت ذات يومٍ في ذروة خضارها وتألّقها على غصنٍ منها. والآن لم يعد يريد شيئاً من كل هذه الحياة بطولها وعرضها سوى أن يرى ابنته فقط، يراها لأوَّل وآخر مرّة ولو نصف ساعة، ينظر إليها بعمق، يمارس حميميَّة أبوَّته، يقبّلها، يتحدَّث معها، يسمع صوتها، يُسمعها صوته، تتحدَّث له عن أحلامِها، تقول له: بابا. يقول لها: ابنَتي. حينها سوف تنتهي كل علاقةٍ له بالحياة، ويسحب نفسه مِنها بمنتهى الهدوء، مثله مثل تلك الورقة.

كم حاول مراراً وتكراراً وهو في السجن أن يراها، أرسل عشرات الأشخاص الذين كانوا يخرجون من السجن إلى أمّها كي تجلبها له إلى السجن ليراها، لكن دون جدوى، لم يكن أحد يعلم لها عنواناً، كانوا بعد فترةٍ يعودون إليه في السجن، ويُخبرونه بأنّها لم تعد تسكن في هذه المدينة، حتى المدرسة التي كانت تُداوم فيها، قالت بأنها لا تعلم أين هي الآن، كل ما تعلمه أنّها نَقلت عملها في التدريس إلى العاصمة.

عندما دخل السجن قبل عشرين سنة، كانت زوجته حاملاً في شهرها التاسع، وكانا ينتظران ولادة ابنتهما الوحيدة كل ساعة، أحياناً كان ينهض في أوقات متأخّرة من الليل، ينظر إليها مستلقية إلى جانبه، يتخيَّل بأنّه سوف يسمع بعد قليل صراخ المولودة.

ابتاع كل ما يمكن أن يلزمها من ثياب، وهزازة، وفراش، وحقيبة لمستلزماتها التي ستأخذها أمّها إلى المستشفى في يوم الولادة، واختار لها اسم (أناهيد).

قال: سوف أسمّيها أناهيد يا هناء، فيه مزيج من حروف اسمكِ واسمي، سينادونني: يا أبا أناهيد، وينادونك: يا أم أناهيد.

قالت: كما تريد يا إدريس، اسمٌ جميل، سوف يقترن باسمَينا.

في تلك اللحظات، سمعا رنين جرس الباب، فتركته مسترخياً بدعةٍ على السرير، لأنّه كان قد استلقى عليه بعد أن تناول الغداء، وأراد أن يغفو في قيلولةٍ ثم يعود إلى عمله في الدكّان الذي استأجره وسط سوق المدينة ويبيع فيه الأقمشة.

بعد قليلٍ، ترامى صوت أخته نجوى إلى سمعه وهي تُحدّث زوجته بنبراتٍ باكية: إدريس في البيت يا هناء؟

- في البيت، لكنه نائم. جاء صوت زوجته.

- الكلب شتمني، وضربني، وقال لي: لا أهل لكِ، لو كان يوجد رجل واحد لديه شَرَف في عائلتك، دعيه يأتي إليّ كي أؤدّبه. قالتها نجوى بصوتٍ مرتفع.

- أرجوكِ يا نجوى، اتركي إدريس بعيداً عن خلافاتك مع زوجك، خلافاتكما لا تنتهي، في الشهر الماضي تشاجر معه من

أجلكِ، وكادا يقتتلان، أنا على وشك الولادة كما ترين، دعينا بحالِنا.

- ماذا تقولين يا هناء! أليس أخي، ومُجبَر للدفاع عنّي؟ أم أن لا رجال لديهم شَرَف خلفي كما يدّعي الكلب أدهم.

- يا أختي، أدهم زوجكِ، إما استمرّي معه وتحمّلي، أو انفصلي عنه، لم يفرضه أحدٌ عليكِ، لقد كان خياركِ.

- هل تطردينني من بيت أخي، ومَن أنتِ حتى تطردينني؟!

- أنا صاحبة البيت، ولا أريد أن أراك مرّة أُخرى هنا.

- اتركيني.. قالتها وفي غضون ثوانٍ كانت واقفة في غرفته، ورأته متيقّظاً ومستلقياً على ظهره في السرير تاركاً ذراعَيه إلى جنبَيه. قالت بصوتٍ تُخالطه أنّات البكاء: أدهم ضربني يا أخي، وأهانني، إذا سكتنا عنه، سوف يطعنني في شرفي، وعندها سوف يلحق بك العار، قال لي: لو كان إدريس رجلاً ليأتي إليّ حتى أمرّغ أنفه في الأرض.

وثب من السرير وقد احمرّت وجنتاه: سأريه مَن الرجل. قالها بغضبٍ واتجه إلى المسدَّس الذي كان في صندوقٍ صغيرٍ في دولاب الثياب، وحَمَله، فقالت هناء مصفرّة الوجه وبفمٍ مرتجف: لا تتسرَّع بتصرّفٍ طائشٍ يا إدريس. لكنّه دسَّ قدَمَيه في نعلَيه كما لو أنّه لم يسمع شيئاً، وخرج هرولةً وهو يقول: في

المرة الماضية، اكتفيتُ بتوبيخه، لكن هذه المرة لن أكتفي بذلك.

***

صرختْ هناء وهي تجري حافيةً خلفه إلى منتصف الشارع: عد يا إدريس، استعذ بالله من الشيطان، لا تضيّعنا، أنا حامل.

وابتسمَتْ نجوى بجانبٍ واحدٍ من فمها، ومضت تهرول خلفه، جرى إدريس في الشارع محتقن الوجه والناس يرمقونه بنظراتهم، وتلاحقه بعض الأصوات التي تناديه: إدريس.. إدريس.. خير إن شاء الله؟ دون أن يلتفت إلى أحدٍ، ولبث يجري زهاء ربع ساعةٍ حتى وصل إلى بيت أدهم وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط، عند ذاك لم يطرق الباب، بل خبطة بقدمه بكل ما أوتي من قوة واقتحم البيت فرأى أدهم الذي انتفض واقِفاً ينظر إليه بذعر.

قال إدريس: سأريك بأنّني رجل يا أدهم، ولستُ بلا شَرَف.

قال أدهم بفمٍ جافّ: انتظر يا إدريس، لا ترتكب حماقة، دع عنك المسدَّس واسمعني، لديّ ما أقوله لك.

- سمعتُ من أختي كل ما أردتَ أن تقوله. قالها وعلى الفور أطلق كل ما في المسدَّس من عيارات ناريّة عليه طلقة إثر طلقة، وكانت ستَّة عيارات. ثم جمد في أرضه ونظر إلى أدهم الذي كان كتلةً من الحياة، وفي غضون لحظاتٍ تحوَّل إلى جثَّةٍ

هامدة. هرع بعض الجيران إلى البيت إثر سماع إطلاق العيارات الناريّة، وعندما رأوه، والمُسدَّس بيده، تراجعوا مذعورين تحسّباً لأيّ تصرّفٍ قد يبدر منه، واكتفوا بالتجمهر في الشارع بمحاذاة باب البيت.

قعر جب

كَمَن كان في نومٍ عميقٍ واستيقظ بغتة ليرى نفسه في قعر جب، أدرك إدريس في تلك اللحظات المروعة بأنّه تحوَّل إلى مجرم، إلى قاتل، وأوَّل ما ترتَّب على هذا التحوّل المريـع الذي وجد نفسه فيه، هو أنّه لم يعد قادراً على العودة إلى بيته كما كان يعود كلَّما خرج.

أحسّ بجدران الغرفة تقترب من بعضها، تحاصره، تضيق عليه، فهرع إلى الخارج، أفسح له المتجمهرون حيّزاً، هرول باختلالٍ في الشارع والمُسدَّس بيده دون أن ينظر إلى أحد حتى وصل إلى مركز الشرطة وسلَّم نفسه قائلاً: لقد قتلتُ زوج أختي مع سبق الإصرار والترصّد.

أخذوا منه المسدَّس، وحرَّروا ضبطاً بإفادته، ثم أجروا اتِّصالاً مع شرطة النجدة كي يذهبوا على الفور إلى بيت المغدور، لكن قيل لهم بأن أحد الجوار سبقهم في الاتّصال، وسيارة النجدة أصبحت في المكان.

اقتعدَ إدريس أرض نظّارةٍ لا أحد فيها غيره، اتكأ بظهره إلى الحائط، أغمض عينَيه كأنّه لا يُريد أن يرى شيئاً، ليته لبث مسترخياً في عشّه الجميل الذي كان ينعم فيه بالقيلولة، كيف استطاعَت أخته نجوى أن تُخرجه من متعة الاسترخاء الآمنة

تلك، وتودي به إلى هذا المكان الموحش، القذر، الذي يكتظّ بروائح العفونة، كيف استطاعَت في غمضة عينٍ أن تجعله قاتِلاً لرجلٍ يجلس بأمانٍ في بيته، أن تحرمه من أخذ زوجته إلى المُستشفى كي تلد، فيرى ابنته، يحملها على ذراعَيه، وبعد ساعاتٍ يعيدهما إلى البيت، تحرمه من الذهاب إلى عمله، والاستمتاع بتلك الطقوس الجميلة والتحدّث مع الزبائن عَن نوعية الأقمشة، عَن أسعارها؟! لا يعرف كيف أخذته غفوة وهو يشرد مغمض العينَين بكل ما جرى بهذه السرعة التي انقلب فيها كل شيءٍ رأساً على عقب.

***

في صبيحة اليوم التالي، قيّدوا يدَيه وقدمَيه وأخذوه إلى المحكمة، مضى منكَّس الرأس، جهم المحيّا. عندما وقف أمام القاضي الذي كانت جبهته ضيّقة، لبث صامتاً بمعنوياتٍ منهارة دون أن يعرف ما الذي سيقول، لم يشعر برغبة في الدفاع عَن نفسه، هل يقول بأنه كان ضحيّة لأخته التي استطاعت أن تستدرجه إلى ارتكاب هذه الجريمة؟ هل يقول بأنّه عالج خلافاً كان بين أخته وزوجها؟ أم يقول بأنّه لم يكن يعلم ما الذي يفعل؟!

بعد جلساتٍ عديدةٍ، وهو صامتٌ ويكتفي بقول أنّه قتل الرجل في بيته، ومستعدُ لتلقي العقاب القانوني الذي يترتَّب

على ذلك، دون أن يضيف شيئاً، صدر عليه الحكم بالسجن عشرين سنة.

كل شيءٍ تغيَّر أمامه، هكذا بين ليلةٍ وضحاها، تحوَّل من واقعٍ إلى واقعٍ متناقضٍ له، من طقوسٍ حياتيّة إلى طقوسٍ مختلفة عنها تماماً، من مجتمعٍ إلى مجتمع آخر، من علاقاتٍ إلى علاقاتٍ أُخرى، بل حتى مِن أحاديث يوميّة إلى أحاديث يوميّة أُخرى.

كانت المرَّة الأولى التي يدخل فيها السجن، المرة الأوْلى التي يرى نفسه فيها سَجيناً، كم راودته أفكارٌ فيما لو كان ذلك حلماً واستيقظ منه، نفضه عنه كما ينفض غباراً علق بثيابه.

بعد شهرَين من سجنه، جاءت زوجته تزوره لأوّل مرة، أخبرته بأنّها أنجبت ابنتهما، وسمَّتها (أناهيد) حسب اختياره هذا الاسم لها. وقالت بأنَّها لن تجلبها إلى السجن حتى لا تقع نظراتها الأولى على أبيها وهو سجين بسبب قتل رجل في بيته: حتى عندما تكبر يا إدريس، لن أُخبرها بأنّك في السجن، سأقول لها بأنَّك سافرتَ إلى بلادٍ أُخرى كي تعمل، وانقطعتْ أخبارك عنّا.

كان ينظر إلى الأرض وهو يستمع إليها وقد ترقرقَت الدموع في عينَيه دون أن يعقب على كلامها بشيء، وقبل أن تنصرف قالت: لديّ خبر سيّء يا إدريس، لكن عليكَ أن تعرفه، فرفع

رأسه ينظر إليها بعينَين مُستفسرتَين، انبجست الدموع من عينَيها وقالت: أحد أخوة أدهم، قتل أخاك معصوم انتقاماً لأخيه. ثم خطت شطر الخارج في الساحة التي يجتمع فيها المساجين بالزوّار.

لبث إدريس عشرة أيّامٍ لا يأكل ولا يشرب إلّا نادراً، ولا ينام إلّا في غفواتٍ متقطّعة، وذات يوم أغمي عليه وتم إسعافه إلى المستشفى، أمضى فيها خمسة أيّامٍ ثم أعادوه إلى ذات المهجع.

***

كانت تلك الزيارة هي الوحيدة لهناء، وانقطعت عنه، وكان كل أسبوعٍ يتوقَّع أن يترامى اسمه من ميكروفون السجن للزيارة، ولكن ينتهي وقت الزيارة، ويعود المساجين الذين كانت لديهم زيارات إلى المهجع، دون أن يهتف ذاك الميكروفون باسمه.

كانت تُراوده أفكار شتّى: فهل هي مريضة؟ هل أصيبَت بمكروه؟ هل أصاب أناهيد مكروه؟ هل.. وهل.. وهل..؟ وتتداعى عليه الأسئلة والتكهّنات، ويمضي الأسبوع تلو الأسبوع، دون أن تأتي. وذات يوم زيارةٍ بعد سنة من وجوده في السجن، سمع اسمه، لم يصدّق ذلك، وتكرَّر الاسم، خفق قلبه فرحاً، وهرع إلى ساحة الزوّار يوزّع أنظاره على الوجوه بلهفةٍ، وقعت أنظاره عليها، وكأن الناس جميعاً اختفوا بغتة ولم يعد في الساحة غيرها، لم يعد يرى غيرها، تقدّم إليها بشوقٍ

عارم، أخذها في حضنه بحرارة وصار يقبّلها وكأنّه يفرّغ كل الشوق المُتراكم في قلبه من خلال القبلات، وكانت تبكي وهي تتحسَّس لهفته في القبلات على خدَّيها، على عينَيها، على جبهتها، على يدَيها، ويقول: اشتقتُ إليك كثيراً يا هناء بشكلٍ لا يمكن لأيّ مخلوقٍ أن يتخيَّله.. ماذا تفعلين؟ كيف تعيشين؟ هل أناهيد بخير؟ هل تشبهكِ؟ أريد لها أن تشبهكِ..

ثم جلسا على أرض الساحة بين جموع الزائرين والسجناء، وقد وضع يدَيها بيدَيه وشبك أصابعه بأصابعها كأنّه لا يريد أن يتركهما حتى لا يفترقا ثانيةً.

إذ ذاك قالت هناء: كل شيءٍ على ما يرام يا إدريس، ولم تحصل تغييرات، ولكن نجوى تزوَّجت قبل شهرٍ. فوجئ بِما سمع، نجوى التي لم يرها منذ ذلك اليوم، ولم تزره ولا مرة واحدة في السجن.

ثم بعد صمتٍ لم يطل قالت وقد أخذت الدموع تسيل من عينَيها: أرجو ألّا تفهمني خطأً يا إدريس، وأعتقد بأنّك لن تفهمني خطأً.

نظر إليها وهو صامت، فقالت: لا أريد أن أخدعك وأتواصل مع رجلٍ آخَر وأنت زوجي، ولي منك ابنة هي أغلى ما لدي في هذا العالَم. فكَّرتُ كثيراً وقلبتُ الأمر على كافة أوجهه، وتوصلتُ إلى نتيجة أراها صائبة، وهي أنّني لن أستطيع أن

أعيش مع ابنتنا لوحدي خلال كل هذه السنوات الطويلة، أحتاج إلى رجلٍ يحميني ويحميها. الظروف الاجتماعية صعبة وقاسية بالنسبة لامرأةٍ في بداية عمرها، وتعيش مع مولودتها لوحدهما وزوجها محكومٌ عليه بعشرين سنة سجن، لذلك جئتُ وكلّي أملٌ ورجاء بأن تُقدّر هذا الظرف الاستثنائي الذي واجه حياتنا الزوجية وهي في مستهلّها. وثق تماماً يا إدريس بأنّه لا يوجد رجلٌ على سطح الأرض يمكن له أن يأخذ مكانك لا في عينَي، ولا في قلبي.

ترك يدَيه من يدَيها ببرودٍ، وقال بغصة ثقيلةٍ وقد أشاح بنظره عنها لأوَّل مرة منذ بدء الزيارة: لكِ ما تشائين (ولم يستطع أن يلفظ اسمها) وأردف يقول: أنتِ أدرى بالواقع الذي تركتكما فيه. ثم لفظ عبارات الطلاق، واستدار عائداً إلى المهجع والغصة تزداد ثقلاً في حَنجَرته.

ضريبة المهجع

انتبه إدريس للتو، أو لم يكن يدقّق حتى ينتبه بأنّ غالبية المساجين في المهجع الذي نزل فيه، سُجِنوا بسبب النساء، عقد صداقاتٍ مع بعضهم، ووجد نفسه ينضمّ تلقائياً إلى مجموعةٍ من خمسة مساجين في المهجع الذي قسّم المساجين فيه أنفسهم إلى مجموعات، يجلسون على شكل حلقاتٍ مع بعضهم بعضاً، يتبادلون الأحاديث، يصنعون لأنفسهم أنواعاً من الطعام، يحتسون الشاي، يفصفصون البزر، يلعبون (الداما)، يمشون معاً في ساحة السجن عندما تحين ساعة الخروج كل يوم، يبتاعون احتياجاتهم من دكّان السجن المنزوي في إحدى زاويا الساحة.

وما جعله ينتبه أكثر، هو أن الضرب على النزلاء الجدد أخذ يتكاثَر بشكل ملحوظ، وقد اعتاد على ذلك منذ اليوم الأوَّل لدخوله إلى المهجع، حيث اجتمع عليه المساجين بغتة عندما علموا بأنّه سُجن بسبب امرأة، وأخذوا يركلونه، يصفعونه، يلطمونه، يقعون بالضرب المبرح عليه من غير أن يعرف السبب حتى كاد أن يفقد الوعي. عند ذاك أخذوه إلى الحمّام، تركوه يستحم، ثم أعادوه، وأعطوه سريراً كي ينام عليه.

استلقى على السرير وهو يتأوَّه من آثار اللكمات على بَدَنه، وفي اليوم التالي عَلِم بأنّ كل نزيلٍ جديدٍ يأتي إلى المهجع بسبب النساء، فإنَّهم يُعاقِبونه جزاءً لغبائِه الذي أودى به إلى السجن. ينهالون عليه بالضرب بأيديهم وأقدامهم وهم يقولون: امرأة أدخلتك السجن يا غبي.

النزيل (خالد) الذي كان ينطق الراء غيناً، وكان أنفه يشبه منقار طائرٍ صغير، أخبره بذلك في الصباح، قال: ولا يهمَّك يا إدريس، أنا أيضاً عندما أتيتُ إلى المهجع، تلقيتُ الضرب، لم يبق أحد في المهجع إلّا وسدّد إليّ ضربةً، بقيتُ أسبوعاً وأنا أعاني مِن آثار الضربات.

قال بامتعاضٍ: ألا يكفي ما تلقيته مِن حُكمٍ بالسجن؟

ابتسم خالد نصف ابتسامةً وقال: يقولون بأن لا علاقة لهم بحُكم القُضاة، هذه ضريبة دخول المهجع، أمّا الذين يدخلون المهجع لأسباب أخرى لا علاقة لها بالنساء مِن قريبٍ أو بعيد، فيُعفَون مِن هذه الضريبة.

قال: هل كل المهاجع تفعل هذا يا خالد؟

أشعل خالد سيجارةً بطقّةٍ من قدّاحته وقال: لا، فقط هذا المهجع، كما علمتُ مِن المساجين بأن قصّة هذه الضريبة تعود إلى نحو خمس سنواتٍ مضت، عندما دخل سجينٌ اسمه (منهل) إلى هذا المهجع، وكان قد حُكِمَ عليه بالإعدام بجريمة

قتل أبوَي زوجته، حصلت تلك الجريمة عندما اتَّصلت زوجته بأبيها وقالت بأنّه ضربها، وشتمها، وطلبت منه أن يأتي على الفور كي يأخذها إلى البيت، لأنّه يمنعها من الخروج. فجاءت أمّها أيضاً معه، لكن منهل منعهما من أخذها، وبعد مُشادَّة كلاميّة بينه وبينهما سدَّدَ أبوها صفعةً قويّةً على وجهه. قال منهل بأنّها كانت أول صفعة تلقّاها في حياته، فلم يحتمل، وما كان عليه إلّا أن هرع إلى المسدَّس تحت سطوة الغضب الذي استبدَّ به، وأطلق النار عليهما معاً.

ذاك الرجل هو الذي سنّ هذه السنة في هذا المهجع في اليوم الأوّل الذي دخل إليه، عندها خبط رأسه بالحائِط عدَّة خبطات، ثم طلب من جميع النزلاء أن ينهالوا عليه بالضرب.

***

كان رجلاً قوي البنية، كثّ الحاجبَين، يتحدَّث بصوتٍ عال، وكان السجناء يهابونه، وبعد أقل من شهرٍ أصبح رئيساً للمهجع، وصار كلّما يدخل سجينٌ بسبب امرأة، يأمر السجناء بالوقوع عليه ضرباً عقاباً لغبائه. ويُقال بأنّه بعد نحو سنةٍ ونصف سمع بأن زوجته تزوَّجَت، فقال حينها: الآن أدركتُ جيداً بأنني أغبى رجل في هذا الكون. ثم غدا يلطم وجهه بالصفعات. ولذلك عندما يأتي الحرّاس بسجينٍ جديدٍ إلى هذا

المهجع، فإنَّهم يبتسمون ويقولون له بسخرية: سوف نأخذكَ إلى مهجعٍ، ستلقى فيه هديّة دخول.

ضحك إدريس وهو يستذكر هذه الجملة وقال: نعم، سمعتُ ذلك من أحد الحرّاس عندما أتى بي إلى هنا.

قال خالد: رأيته عندما دخلتُ السجن، وكان حينها رئيساً للمهجع، وأذكر أنّنا ذات يومٍ فوجئنا بدخول رجلٍ طويل جداً، لم يسبق لي أن رأيت شخصاً بطوله قط، كان اسمه -إن لم تخنّي الذاكرة- (مقداد)، كان ضخماً ويضع وشماً برسم عقربٍ على عضلة يده اليمنى، وكان قد دخل السجن لأنه خنق زوجته عندما كانت نائمة.

وقفنا ننظر إلى هيأته ونستعدّ للانقضاض عليه، دنا بعض المساجين منه، لكنه دفعهم بقوة وأبعدَهم عنه، عندها تقدَّم منهل وانقضّ عليه وأوقعه أرضاً، فاجتمعنا عليه نركله وهو يُقاوم ويصرخ بأعلى صوته، وكان الحراس يسمعون الصراخ في الخارج، ويضحكون دون أن يتدخّلوا لأنهم كانوا يعلمون ما الذي يحدث، لبثنا ننهال عليه ضرباً حتى استسلم تماماً، ثم تركناه يستحم، وأعطيناه سريراً.

كان ذاك الرجل يهاب من منهل كثيراً ويبقى يرمقه بحذرٍ بين حينٍ وآخَر، وأذكر أنّه بعد عشرة أشهر من وجودي هنا، نفّذوا حكم الإعدام بمنهل. يومها لم نكن نعلم بذلك، فقد استفقنا

صباحاً، ولم نجده في المهجع، وبدا لنا بأنَّهم أخذوه في وقتٍ متأخّر من الليل، وبعد يومَين سمعنا بأنّه أُعدِم، وحلّ (معاذ) رئيساً للمهجع بدلاً عنه، أمّا ذاك الرجل الضخم مقداد، فقد أخرجوه من المهجع بعد سنة ونصف، لا أعرف أين أخذوه.

قال إدريس بعد أن استمع إلى هذه القصّة من خالد: رحم الله منهل، كان ذكياً على قدر ما أدرك في وقتٍ متأخّرٍ بأنّه غبي. الآن يا خالد تيقَّنتُ بأنّني كنتُ أستحق كل ضربةٍ تلقّيتها من المساجين، فلنقرأ الفاتحةَ على روح منهل، وندعو الله أن يغفر له.

منذ ذلك اليوم أصبح إدريس صديقاً لخالد وانضم إلى جماعته المؤلّفة من خمسة أشخاص، هم: خالد، وطاهر، كان يؤلف كتاباً في السجن، وخطيب، كان إمام المهجع، وغسان، كان أحياناً يغنّي بعض العتابا يشنف بها أسماع السجناء، ومعاذ، كان رئيس المهجع، وصار هو سادسهم.

وأحياناً كانت الجماعات هي الأخرى تجتمع مع بعضها وتتحدَّث في هذه المسألة، وكل واحد يعترف بمدى غبائه، كل واحد يتحدَّث عن لحظات تحريض المرأة له كي يتهوَّر ويودي بنفسه إلى هذه الهاوية، حتى تتمكَّن هي من ممارسة حريّتها، تعيش حياتها وفقما ترتئي. ثم يجمعون بأن الأمرَ أصبح واقِعاً، واقِعاً لا بدَّ من معايشته، شاءوا، أم أبوا، لذلك عندما كانوا

يتوجهون جميعاً إلى ضحيّة الغباء الجديدة، وينهالون عليه ضرباً مبرحاً، كان كل واحدٍ يتخيَّل بأنّه يضرب نفسه، يُعاقِب نفسه من خلال النزيل الجديد.

وكان إدريس يتخيَّل بأن أخته نجوى متزوّجة، تستمتع بحياتها، تتناول أطايب الطعام، ولذائذ الشراب، تزور مَن تريد زيارتهم، تستقبل مَن تُريد استقبالهم، ترتدي ثياباً جديدة.

يتخيَّل أن زوجته التي أحبّها وأحبَّته، متزوّجة هي الأخرى الآن، تستمتع بحياتها، وكان معها الحقّ أن ترفض بأن تكون ضحيّة لغبائه، معها الحق بأن تعيش حياتها، تربّي ابنتها، وتنجب أطفالاً غيرها، تُصبح لها عائلة، لقد رفضتْ أن تسجنها نجوى عشرين سنة أيضاً بين أربعة جدران كما سَجَنته.

رائحة الزوجة

أخذت السنوات تمضي، أحياناً بإيقاعٍ بطيء، وأحياناً بإيقاعٍ سريع، وتتراكم على بعضها حتى جاءت السنة الأخيرة، وانضمَّت هي الأخرى إلى أخواتها الماضيات. يومها وقف إدريس ينظر إلى وجوه زملائه وأصدقائه المساجين، يسترجع بذاكرته كيف أنّه أمضى عقدَين مِن عمره في هذا السجن، وفي هذا المهجع، كم من أناس جاؤوا، كم من أناسٍ خرجوا، كم مِن حكايا سمعها من كل ذاك العدد الهائل من المساجين، كم مرَّة ضحك، وكم مرة ذرف الدموع في جوف الليل وهو مستلقٍ على السرير.

عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، انتهى من إجراءات الخروج من السجن، وركب سيّارة أجرة عائداً إلى بيته، بيته الذي كان فارِغاً وصامتاً ككهف، ولكنه كان ممتلئاً برائحة هناء، بحركاتها من غرفةٍ إلى أخرى، بصوتها وهي تناديه وتتحدَّث معه، برائحة ذكرياتهما معاً.

ما زال كل شيءٍ في ركنه المعتاد كما لو أنّه يقول له: أين كنتَ؟ لقد اشتقنا إليكَ كثيراً.. اشتقنا لصوتك.. لحركاتك. دلف إلى المطبخ، إلى بقيّة الغرف ينظر إلى كل شيءٍ.

وقعت عيناه على موبايله نوع (نوكيا) الذي كان قد وضعه على المنضدة بجانب سريرهما الزوجي عندما خرج في ذاك اليوم المشؤوم، كان لا يزال في مكانه، أوَّل موبايل اشتراه، ولم يغيّره. كل شيءٍ من مقتنياتك يعبق بذكرياتٍ لك معه، وبذكريات له معك، يشكّل جزءاً من علاقتك بالحياة، وجزءاً من علاقة الحياة بك يا إدريس.

أدرك للتو أن عقدَين من الزمن مضيا من غير أن يتحدَّث أو يسمع كلمة واحدة بالموبايل.

نظر إلى وسادتَيهما على السرير الزوجي، تخيَّلها مستلقية كما كانت تستلقي ورأسها على الوسادة، شعرها الناعم متناثرٌ عليها. هناء.. قالها ومضى بتُؤدَةٍ يدخل إلى الغرف كأنّه يتوقَّع أن يراها في المطبخ، أو في الصالون تُحضّر دروس يوم الغد لطلّابها، أو جالسة تخيط بيدها ثوباً ما، أو تضع الثياب في الغسالة، أو جالسة على أريكةٍ وعندما تراه، تنهض، أو.. أو.. ثم عاد إلى غرفة النوم، استلقى على السرير، على جنبه الأيمن ينظر إلى وسادتها. وبعد نحو نصف ساعةٍ استلقى على ظهره، وخطر له بأنّه الوحيد الذي يقيم في هذا البيت بكل ما فيه، وكان يقيم في مهجعٍ عبارة عن غرفةٍ كبيرة مقفلة عليهم من الخارج، يقيم فيها خمسون شخصاً، ينامون فيها، يأكلون ويشربون فيها،

يسهرون فيها، يتحادثون فيها، يستحمّون فيها، يستخدمون التواليت فيها.

***

في اليوم التالي خرج إلى السوق يبحث عن هناء، وعن ابنته الصبيّة التي لم يرها، يجول بعينَيه على الذين يمشون في الشوارع، وعندما يرى امرأةً تمشي مع فتاةٍ، يهرع إليهما، عندما يرى امرأةً، يسارع في خطواته إليها.

إدريس.. إدريس.. سمع هذا الصوت يناديه، وعندما التفتَ، رأى رجلاً يماثله في العمر، شعره مسرّحَ مفروق إلى جانب، يحث خطاه إليه. صافحه الرجل وهو ينظر إلى وجهه مليّاً وقال: الحمد لله على سلامتك يا إدريس.. متى خرجتَ من السجن؟

قال: سلَّمك الله، البارحة خرجت، لكن المعذرة، هل تُذكّرني بنفسك؟

قال الرجل: أنا (فرحان)، (دودة الكتب) جارك في الحارة.

قال: آه.. أه.. تذكَّرت، (دودة الكتب)، ولكنك تغيَّرتَ كثيراً، ما أخبارك؟

قال: تركتُ الحارة منذ أكثر من عشر سنوات، واشتريتُ بيتاً في حارةٍ أُخرى، أمّا أخباري، فتعال يا صديقي حتى تعرف، وأمسك بيده ومشى به حتى وصلا إلى رصيفٍ وقد فرش عليه

مجموعةً من الكتب المستعملة، وقال: هذا أفضل عمل يناسبني، أشتري الكتب من الناس وأبيعها، وأقرأ ما يعجبني منها.

في تلك اللحظات، مرَّ صبيٌّ يحمل صينيّة عليها كاسات شاي فارغة، فناداه فرحان وطلب منه أن يأتي بكأسَين من الشاي. وأجلس إدريس على كرسيّه الوحيد الذي كان بجانب الكتب.

مع شرب الشاي وتبادل الأحاديث، قال له فرحان: أختك نجوى تسكن في نفس الحي الذي أسكن فيه. تغيَّرت ملامح وجهه عندما سمع ذلك، وبعد لحظاتٍ أخذ منه العنوان، وودَّعه، واتّجه إلى بيت أخته كي يزورها ويطمئن عليها، ومن جهةٍ أُخرى يُخبرها بأنّه خرج من السجن. وعند وصوله إلى البيت، ضغط على زرّ الجرس الذي كان بجانب الباب، بعد قليلٍ فتح رجلٌ على وجهه سمات المجرمين، وسأله عّما يُريد؟

وعندما علم بأنّه أخوها، قطب جبهته، ورمقه بنظرةٍ مزدرية من الأعلى إلى الأسفل، ثم قهقر إلى الداخل من غير أن ينطق بكلمة واحدة، وبعد نحو عشر دقائق من وقوفه وانتظاره أمام الباب، جاءت نجوى، نظر إليها لأول مرةٍ منذ عشرين سنة، وكانت قد تغيَّرت كثيراً، نظرت إليه نظرةً سريعة وقالت له على الفور: اعذرني يا أخي، لا أستطيع أن أدخلك، زوجي قال بأنّك قد تتسبّب له بالمشاكل وتتدخّل في حياتي الزوجيّة مثلما

تدخَّلتَ سابِقاً، قال بأنّني إذا أدخلتكَ إلى البيت، أو تواصلتُ معكَ سوف يطلّقني، وأنا الآن أصبحتُ أمّاً لأربعة أبناء، إذا أردتَ أن تُحافِظ على حياتي الزوجيّة، أرجوك أن تنساني، وتتركني بحال سبيلي. قال لي للتو: لو دخل هذا المجرم، خريج السجون إلى بيتي، ستخرجين معه مُطلَّقة.

ابتلع إدريس غصّةً عَلَت حنجرته، واستدار بوجومٍ عائداً إلى البيت، أدرك بأنّه لم يعد له أحد في هذا العالَم سوى ابنته أناهيد، أناهيد التي رسم لها صورةً في مُخيّلته، ورسم تلك الصورة على دفترٍ في السنة الأولى لدخوله السجن، ثم كلّما كانت تمضي سنة جديدة، كان يرسم لها صورةً في عمرها الجديد، حتى رَسَمَ الصورة العشرين لها قبل أن يخرج من السجن بشهرٍ واحد، وهو يتخيَّلها وقد أضحت في ربيعها العشرين.

***

تحوَّل البحثُ عن هناء إلى شغله الشاغل، كان البعض يعلم بمكانها لكنه لم يرشده إليها تحسّباً لبعض التكهّنات، والبعض لا يعلم ويكتفي بالقول بأنّها تزوَّجت وتقيم في مكانٍ آخر غير هذه المدينة، لكن لا يعلم أين. وذات يومٍ وهو جالسٌ في باص النقل الداخلي، لَمحَ المُعلّمة (لميس)، عرفها مِن ملامحها التي لم تتغيَّر كثيراً، كانت صديقة لهناء، وكانت بين فترةٍ وأُخرى

تزورها في البيت، ويذكر أنّها في إحدى المرّات نامت عندها في البيت، يومها، استأذنته قائلةً: لميس تأخَّرت عندنا، وكما ترى الطقس ممطر، ما رأيك أن أقترح عليها المبيت عندنا، وغداً نذهب معاً إلى المدرسة؟

قال: لا بأس. فتناولوا العشاء معاً، ثم ذهبتا إلى غرفة النوم، ونام على الأريكة في الصالون، وفي الصباح وبعد تناول الفطور، قالت له لميس بشيءٍ من المزاح: المعذرة، حجزتُ عنك المدام الليلة.

ابتسم وقال: ولا يهمّك، البيت بيتك في أيّ وقتٍ تشائين.

كانت جالسة في مقعدٍ إلى جانب امرأةٍ أُخرى، لبث ينظر إليها حتى نهضت في إحدى المواقف ونزلت، فتبعها في النزول، مشى سريعاً وهو يحاول اللحاق بخطاها، كانت ترتدي بلوزة بيضاء مزركشة بنقوشٍ ذهبيّة، على تنورةٍ قرمزيّة، وتتحزم بنطاق عريض. عندما دنا منها، نادى من الخلف: آنسة لميس..

التفتت إليه، لبثت واقِفة للحظاتٍ وهي تمعن النظر في قسمات وجهه، ثم قالت: أنتَ إدريس..؟

أومأ رأسه بالإيجاب قائلاً: نعم أنا إدريس.

دَنَت منه أكثر وبدت بأنّها تحتفي به قائلةً: الحمد لله على سلامتك يا إدريس. ثم اختصرت كلامها وقالت: بيتنا، قريب، تفضل..

قال: شكراً.. أردتُ أن أسألكِ عَن هناء؟

قالت: ياما تناولتُ طعاماً وشراباً في بيتك، دعني أردّ لكَ ولو القليل في هذه الفرصة، وسوف أخبرك بِما أعرف عَن هناء.

مشى معها حتى دخلا بيتاً، لم يكن فيه سوى امرأة عجوز كانت ترتدي نظارة سميكة، قالت لميس بأنّها تعيش مع أمّها لوحدهما في البيت. ثم أضافت بأنّها لم تتزوَّج حتى الآن.

جلسَ على أريكةٍ، فغابت وتركته مع أمّها التي كانت بشوشة، وبين لحظةٍ وأُخرى تقول له: أهلاً وسهلاً.. دون أن تعرف مَن هو. وبعد قليلٍ ظهرت لميس وقدَّمت له فنجاناً من القهوة مع قطعة كيك، وقالَت: لا تعلم كم حزنتُ عندما سمعتُ بما حصل يا إدريس، وكانت هناء تمر بأسوأ أيّام حياتها. ذهبتُ معها إلى المستشفى عندما ولدت، ثم عدنا، أخذتُ أمّي وأمضينا معها شهراً في بيتك.

رشف رشفةً صغيرة من القهوة وقال: أين هي الآن؟

نظرت إليه وقالت بشفتَيها المدوَّرتَين: أما زلتَ تحبّها؟

قال: هي حبّ عمري، ولم أكن لأطلّقها لولا ما حدث، ليتني سمعتُ كلامها ذلك اليوم، وبقيتُ في البيت. أحبّها الآن أكثر

من أيّ وقتٍ مضى، لكن مشاعر الحب تجاهها اختلفت يا آنسة لميس، صار الاحترام يغلب عليها أكثر، لأنَّها الآن متزوّجة من غيري. ثم أضاف يقول بعد صمتٍ لم يطل به: هناء أعظم خسارة مُنيتُ بِها في حياتي.

قالت: بعد نحو سنتَين مِن دخولك السجن، تزوَّجتْ من معلّمٍ كان يداوم عندنا في المدرسة، اسمه (شكيب) وهو رجلٌ وقور ومهذَّب، ويتمتَّع بأخلاق عالية جدّاً.

أذكر يومها، عندما أبلغها برغبته في الزواج منها، استشارَتني، وقالت: بكل تأكيد لن يكون بالنسبة لي مثل إدريس، ولا يمكن لي أن أحبّه مثل حبّي لإدريس الذي هو نور عيني، لكنّني مجبرة يا لميس، الظروف أقوى منّي.

لا أخفيكَ يا إدريس بأنّني يومها فقط عرفتُ بأن الحب الحقيقي لا يتحوّل إلى كراهية مهما تقلَّبَت به الظروف، وإن تحوَّل إلى كراهية، فإنّه في الأصل لم يكن حباً، بل كان كراهية تمظهرت بغلاف الحب، فجاء الظرف الطارئ ليفضّ عنها الغلاف.

قلت لها: إذا كان لا بدّ من الزواج، شكيب رجلٌ ممتاز، لأن وضعك حسّاس يا هناء، ولستِ صبيّة ستتزوَّجين لأوَّل مرة، أنتِ لديك ابنة، وسوف تقيم معكِ، وهذا الرجل سوف يترك أثراً على تربيتها وعلى مستقبلها، شئنا أم أبينا.

عندها وافقتْ واشترطتْ عليه أن يسافرا ويعيشا في العاصمة بعيداً عن هذه المدينة.

فسألتها: لماذا سوف تتركين المدينة؟

بكت بحرقة وقالت: لا أستطيع، وربما لا أحتمل أن أمشي مع شكيب في شارعٍ مشينا فيه أنا وإدريس، أن أذهب مع شكيب إلى حديقة، ذهبنا إليها أنا وإدريس، أتناول معه الطعام في مطعم، تناولتُ فيه الطعام مع إدريس، أن يراني معه أصدقاءٌ لإدريس، كانوا يروننا معاً. ذكرياتنا الجميلة محفورة على كل ركنٍ من أركان هذه المدينة، وسوف تحرقني كل يومٍ، وكل ساعة، لقد عشنا معاً سنتَين حافلتَين بالذكريات الجميلة من حياتنا.

خرجتْ منه زفرة ممدودة وقال: هل ما تزالين على تواصلٍ معها؟

قالت: في البداية كنتُ أتواصل معها هاتفياً بين شهرٍ وآخَر، ثم بدأت الفترات تطول، وأعتقد أنّني تواصلتُ معها آخر مرَّة قبل سنتَين.

كم أن الحياة تحتوي على تحوّلاتٍ غريبة لم تكن تخطر على البال، كم أن بوسع لحظاتٍ فقط أن تغيّر كل شيء، تقلبه رأساً على عقب، فقط لحظات، مجرّد كلمات سمعها من أخته نجوى، أودت به إلى جريمة قتل، إلى عشرين سنة في السجن،

إلى خسارة زوجته، الحرمان من تربية ابنته، وها هو يجلس في بيت لميس التي كانت تزور زوجته، ها هو يسأل عنها. لو لم تحضر نجوى في تلك اللحظات إلى بيته، لو لم يستجب لثورة غضبها، لَما حصل كل ذلك له. لحظات، مجرَّد لحظات من ضبط النفس، أو حتى مكالمة هاتفية من شخصٍ ما، كان بمقدورها أن تجنّبه كل هذا الذي وقع.

وهو يشرد بكل هذه التفاصيل، أدرك كم أن الحياة محفوفة بالمخاطر، كم أن الإنسان عليه أن يتمسّك بزمام نفسه في لحظات الانفعال، أن يستمع إلى الطرفَين بحيادٍ دون أي اعتبار سوى اعتبار الحياد. ألّا تبدر منه أي بادرة قبل أن يجلس إلى نفسه ويتَّخذ القرار بهدوء، ألّا يسمح لأحدٍ كائناً مَن كان أن يجعله أداة لتحقيق غاياته من خلال تحريضه على الآخرين. لذلك، بعد خروجه من السجن، ذهب إلى قبر أدهم، جلس بجانب القبر من الظهر حتى حلَّت عتمة الليل وهو ينوح ويطلب منه السماح على تسرّعه، يُعبّر له عن ندمه الشديد، خاصّة بعد أن علم بأن نجوى أضافت من عندها أشياء لم يقلها، لقد قوَّلته ما لم يقل بنسبة زادت عن خمسين بالمئة حتى تزيده انفعالاً وتحريضاً كي يحقّق لها مأربها.

***

لم تدعه لميس يخرج من البيت إلّا بعد أن قدَّمت له الغداء، كانت أمّها قد أعدَّت المعكرونة كوجبة للغداء، لكن لميس اتَّصلت بالمطعم، وطلبت كيلو غراماً من الكباب، فتناولوا الطعام معاً، ثم خزّن رقم هناء الذي أملته عليه لميس في ذاكرة الهاتف، وشكرها على تزويده بالرقم وعلى وجبة الطعام. فقالت وهي تودّعه إلى الباب الخارجي للبيت: أمانة عليك، في أي وقت إذا احتجتَ إلى شيء اتَّصل بي، لك معزّة خاصّة عندي يا إدريس.

كرّر شكره وامتنانه لها وعاد إلى البيت، لبث يومَين وهو يتردّد من الاتّصال بهناء، يفكّر بِما سيقوله لها، يكتب بعض المُلاحظات على صفحةٍ كي لا ينسى ما الذي سيقوله، وهو يُدرك كم اشتاق إليها، كم اشتاق إلى سماع نبرات صوتها، إلى تلك الكتلة من النقاء التي كانت تشاركه حياته. كان أحياناً يتخيّل نقاءها مثل نقاء ماء في نبع، لكن كل شيءٍ اختلف، فهو سيتحدَّث معها كشخصٍ بات غريباً عنها، سيتحدَّث مع امرأةٍ متزوّجة من رجلٍ آخَر، ولم يعد يعني لها شيئاً سوى أنّهما يشتركان في أبوَّتهما لأناهيد.

تساءل في قرارة نفسه: هل يُريد أن يراها، أم يرى ابنته؟ هل يُريد أن يسمع صوتها، أم يسمع صوت ابنته؟ تُرى هل تعرف

بأن مدّة السجن انتهت، وأنّه خرج منه الآن، أم نسته خلال كل تلك السنوات؟

لبثت الأسئلة تُراوده دون أن يعرف لها إجابة، وعلى كل حال فإن الإجابة لم تكن تعني له شيئاً مهما كانت، لأنّه اتّخذ قراره بالانسحاب من الحياة برمّتها بهدوءٍ، ابتاع الحبل الذي سوف يشدّه بعزمٍ على قطعة الحديد المعقوفة في السقف التي عُلِّقَت بها المروحة، لم يبق له في الحياة سوى أن يرى ابنته، يودّعها، يجعلها تراه، حتى لا تبقى رؤيته حسرةً في قلبها، ومن جهةٍ أُخرى حتى لا تبقى رؤيتُها حسرةً في قلبه.

أمسكَ بهاتفه الجوّال وهو مرتبك، أظهرَ رقمها على الشاشة، نظر إلى الأرقام رقماً رقماً، تذكّر رقمها السابق الذي حفظه عن ظهر قلب، لم يكن يشبه الرقم الجديد قط. قرأ اسمها على الشاشة، تخيَّلها تختفي بين حروف الاسم، كم من مرَّةٍ ناداها بهذا الاسم، فلبَّت النداء، قال هامساً: هناء.. هناء.. ألم تحنّي إليّ يا هناء؟ وهو يمعن النظر في حروف الاسم. ضغط على زر الاتّصال.. بعد ثوانٍ تناهى الرنين إلى سمعه، تحوَّل كل شيءٍ فيه إلى آذانٍ صاغية، تخيَّله يرنّ عندها: تُرى هل ما زالت تحتفظ بتلك النغمة في هاتفها، نغمة: (عازف الليل) أحياناً عندما كان يرنّ هاتفها، كانت تتأخّر عن قصد في فتح الخط كي تستمع للنغمة كما لو أنّها تستمع إليها أول مرة.

بدت كل رنة تزيده إرباكاً وهو يتوقّع أن تفتح الخط، أن يستمع إلى نبرات صوتها كالعادة، كم من مرَّةٍ تحدَّث معها عندما كان خارج البيت، كم من مرةٍ تحدَّث معها عندما كانت خارج البيت، لكنها الآن مرة استثنائية، اتِّصال استثنائي لم يكن بالحسبان، ولم يكن يخطر على البال ولا لحظة واحدة.

انفصل الخط ولم تردّ، أحسَّ بشيءٍ من الإحباط، بعد نصف ساعةٍ، عاود الاتِّصال، انبعثت عدَّة رنّات إلى سمعه، فُتح الخط، هبط قلبه، تناهى صوتُها: ألو.. إنّه ذات الصوت، لم يتغيَّر كثيراً.. ذات النبرات.

علت غصة إلى حَنجَرته، امتلأت عيناه بالدموع: ألو.. جاء صوتُها للمرّة الثانية. قال بصوتٍ مُتردّد: هناء..

ساد صمتٌ للحظات، قالت: إدريس..؟!

كفكف دموعه بظاهر يده الأخرى وقال: نعم.

قالت: أعذرني لم أردّ عليك في المرة الأولى لأن الرقم كان غريباً، الحمد لله على سلامتك يا أبا أناهيد.. طمئنّي عنك، هل أنتَ بخير؟

قال: الحمد لله، اتَّصلتُ بك من أجل أناهيد.. هل يمكن لي أن أراها؟

قالت: {**وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**}[1]. أكيد، وكيف لا يمكن لك أن تراها وهي من لحمك ودمك؟ هي فلذة كبدك، لك حقّ فيها أكثر مما أنا لي حقّ فيها.

قال: أشكرك يا هناء.

قالت: سوف أهيّئها لذلك، لأنّها لا تعرف عنك شيئاً سوى أنّك سافرت، واختفيت، ثم صمتت للحظاتٍ وأردفت تقول: يبدو بأنّني سوف أستمرّ في التحايل عليها، سوف أقول بأنّك عدتَ وتواصلتَ معي حتى تراها، وأنّك كنت في بلدٍ آخَر بحثاً عن العمل، ونتيجة التباسٍ، تم توقيفك وسجنك كل هذه السنوات، والآن خرجتَ وعدتَ إلى البيت، ما رأيك؟

قال: كما تشائين.

قالت: أين تقيم الآن؟

قال: في نفس البيت.

قالت: عندما خرجتُ من البيت، أقفلتُ الباب وتركت كل شيء في مكانه.

قال: خلعتُ القفل القديم حتى فتحت الباب، واستبدلته بقفلٍ جديد.

---

[1] سورة النساء، الآية 1

قالت: دفتر التوفير مع صورنا واسطوانة فيديو عرسنا، وموبايلي، والذهب الذي كنتَ اشتريته لي، تجدهم داخل حقيبة صغيرة على الرفّ الأعلى من دولاب الثياب.

تذكّر للتو بأنّه كان يودْع ما يزيد لديه من نقود في ذاك الدفتر، واتفقا أن يبتاع دكاناً ريثما تكتمل قيمته في الدفتر، وعندها سوف يرتاح من دفع الأجرة الشهرية للدكان الذي استأجره.

أردفت تقول: الأسبوع القادم مثل هذا اليوم الاثنين صباحاً سوف تكون أناهيد عندك في البيت.

قال: اتفقنا.

لم يقفل الخط، ولم تقفل، كل واحد كان ينتظر أن يقفل الآخَر قبله، وضع الهاتف جانباً دون أن يقفله، ثم عاد إليه بعد ساعةٍ ووجده مفصولاً من الطرفَين.

الفصل الثاني

إشراقة أناهيد

مضت الأيام بطيئةً حتى انتهى الأسبوع، وحلَّ يوم الاثنَين المُرتقب الذي سينتهي فيه كل شيء وفق المخطّط الذي وضعه لنفسه، سوف يمضي عدَّة ساعات مع ابنته، وعندما تذهب، سيُنفّذ الانتحار بواسطة الحبل الذي ينتظر المهمّة في جوف الحقيبة. ولذلك أخذ دفتر التوفير منذ يومَين وذهب إلى المصرف وطلب أن يسحب النقود ويغلق الحساب، نظرت الموظَّفة باستغراب إليه تارةً وإلى الدفتر تارةً وقالت: آخر مرّة أودعتَ فيها نقوداً في دفتر التوفير هذا يا أستاذ كنتُ أنا في بطن أمّي!

لم يجب بشيءٍ، فنهضت حاملةً الدفتر بيدها وهي تهزّ رأسها وتكتم ضحكةً، وبعد نحو خمس دقائق من وقوفه، ظهرت ثانيةً وأشارت له من خلف زجاج مكتبها أن يذهب إلى مكتب المدير الذي كان في الواجهة، ومكتوب في أعلاه (المدير).

خطا إدريس إلى مكتب المدير، طرق الباب المغلق برفق ودخل، كان المدير رجلاً أحمر الوجه ويبدو بأنّه منذ يومٍ أو يومَين قد صبغ شعره وشاربه باللون الأسود الفاحم، وكان

يدخّن سيجارةً طويلةً رفيعة ويتحدَّث بالهاتف مع صوتٍ أنثوي كان يتناهى بنعومةٍ من سمّاعة الهاتف، فأشار له المدير بيده التي يدخّن بها أن يجلس. نظر إدريس إلى أريكةٍ وجلس في منتصفها، وبعد نحو عشر دقائق من جلوسه، أطلق المدير ضحكة عالية وأنهى مكالمته، وطلب من إدريس أن يبقى جالساً ريثما تتمكَّن الموظَّفة أن تضيف له فوائد عشرين سنة ماضية إلى رصيده، وأخبره بأن ذلك قد يستغرق نحو ساعة من العمل.

ثم ضغط برأس سبَّابته على زرٍّ كان أمامه، فدلف المستخدم قائلاً: نعم أستاذ؟

طلب منه أن يجلب كأساً من الشاي لإدريس، وقبل أن يخرج المستخدم قال: وأنت يا أستاذ ألا تشرب شيئاً؟

قال: اجلب لي كأساً من الزهورات، ثم وجّه كلامه إلى إدريس قائلاً: أهلاً وسهلاً بك سيّد إدريس، أنت زبونٌ قديمٌ لمصرفنا.

هزَّ إدريس رأسه هزّات عدَّة إلى الأسفل، فسأله عن سبب غيابه كل تلك السنوات؟ نظر إدريس إليه ولم يجب، وعندها عدل المدير ربطة عنقه ولاذ بالصمت كأنه تلقّى صفعة، ولم يعد ينطق بكلمة واحدة معه، وبين دقيقةٍ وأخرى يرمق أحدهما الآخر حتى قال له المدير بعد أن تلقّى مكالمةً من الموظَّفة: تفضَّل يا أستاذ حسابك أصبح جاهزاً. فنهض وخرج من غير أن يقول شيئاً، وعاد إلى الموظَّفة التي أبقَت الدفتر

عندها بعد أن ألغته، وأعطته إيصالاً راح بموجبه إلى كوة المحاسبة واستلم المبلغ مع الفوائد المُضافة إليه.

ألقى نظرةً إلى الساعة، كانت تشير إلى السابعة والنصف، بدا في حالة ترقّب لسماع صوت جرس الباب في أي لحظة، قالت له هناء: صباحاً. ولم تحدّد الساعة، لكن الصباح عليه ألّا يتجاوز الحادية عشرة في أقصى حدود التأخّر. خطر له أن يتَّصل بها ليعرف وقت الوصول، لكنّه تردّد.

وعندما بلغت الساعة العاشرة إلّا خمس دقائق، تناهى صوت جرس الباب، هبط قلبه، ارتبك، مضى بسرعةٍ شطره، سحب المزلاج، وفتح الباب الذي أصدر صريراً. وقعت عيناه على فتاةٍ في العشرين مِن عمرها، تشعّ ثقةً، ترتدي قميصاً بنفسجياً بكمَّين واسعين، على بنطلونٍ من ذات القماش، تخيَّل في لحظاتٍ بأنّها ليست أناهيد، بل أمَّها، كانت طويلة القامة كأمّها، ذات بشرة بيضاء كأمّها، شعرها الأشقر مشدود إلى الوراء ومعقود خلف رأسها بعناية كأمّها، ويتدلى قرطان من أذنَيها كأمّها.

لكنها ابنته، من لحمه ودمه، تخيَّل في ثوانٍ بأنَّها مرآة ينظر فيها إلى نفسه، كانت هي الأخرى تنظر إليه بعينَين مخضّلتَين بالدموع. ألقت بنفسِها في حضنه، ضمَّها إليه، فوجئ برائحة أمّها تفوح منها، قال في قرارة نفسه: حتى الرائحة؟! ثم عاد

ينظر إلى وجهها بعمق كأنّه ربيعٌ عامرٌ بكل ألوان الزهور والرياحين. انهال عليها بالقبلات كما لو أنّه يعوّض كل قبلات طفولتها ونموها التي فاتته سنة بعد سنة: يا إلهي كم أن الأبوّة رائعة. همسها في سره، وهو ينظر إليها تارةً ويقبلها تارة أخرى. بعد قليلٍ، توقَّف، ألقى نظرةً إلى الخارج، لم ير أحداً، لم يكن ذلك مهمّاً بالنسبة إليه بحضور ابنته.

طوّقها بذراعه ومضى بِها إلى الداخل، أقعدَها بجانبه على الأريكة كما لو أنّها طفلة صغيرة، مسد على شعرِها، راوده شعورٌ بأنّها كتلة بشرية تشكَّلَت من لحمه ودمه، وأن كل عضو فيها هو جزء من عضو فيه. بعد نحو ساعةٍ، أدرك للتو بأنّه لم يتحدَّث بكلمة واحدة، ولم تتحدَّث بكلمة واحدة منذ أن فتح لها الباب ودخلت.

كانت ساعة من حديث الحواس للحواس بكل تلك الحميميّة، الحديث الذي لبثت الكلمات صامتة في حضرته، لأنّه كان أكبر من أيّ كلامٍ يمكن أن يُقال. أدرك أيضاً بأنّه في غمرة ذلك، نسي أمّها وكان يعتقد بأنّه ينتظر بأن يرى أمّها قبل أن يراها، ينظر إليها بعد كل تلك السنوات من الفراق، قبل أن ينظر إلى ابنته، لكن الحقيقة أن حضور الابنة طغى على كل حاسَّةٍ من حواسه إلى درجة أنّه أنساه أمّها تماماً خلال تلك الساعة الأثيرة.

قال باحتفائيَّةٍ: طمئنيني عنك يا بنَتي؟ كانت المرة الأولى التي تسمع فيها صوته، كانت أحياناً تسمع أصوات بعض الرجال، وتتخيَّل بأن صوته يشبهها.

قالت: كنتُ خائفة جداً ألّا أراك يا بابا، أحياناً كنت تأتيني في المنام، وكنا نتحدَّث. وفوجئ مرَّةً أُخرى بالشبه الكبير بين صوتها وصوت أمّها، كأنّها نفس طبقات الصوت، لم تتغيَّر.

بدا صوتها عذباً رقراقاً، يشيع في نفسه هدوءاً وراحة وهو يسمعه، ذاك الصوت الذي طالما أراد أن يسمعه، طالما تخيَّل سماع نبراته وهو في السجن، صوت الابنة الذي كان محروماً منه، لكنه لم يكن يتخيَّل بأنّه يكاد يكون طبق الأصل عَن صوت أمّها.

مرر يده على وجهها وقال: لقد انطوت تلك الصفحة يا بنَتي، كانت مرحلة وعشناها بحلوها ومرّها.

قالت: ابنتي.. لأوَل مرَّة أسمعها، وأشعر بِما تعني لي، سمعتها من قبل من عدَّة أشخاص في أماكن مختلفة، من بعض الأقرباء، لكنها لم تكن تعني لي ما تعنيه وأنتَ تقولها لي، أنت الأب الحقيقي، وأنا أشعر بأنّني أنتمي إليك، أنتمي إلى كل عضوٍ فيك، إلى كل قطرة من دمك، بل أستنشق أنفاسي من الأنفاس التي تتنفَّسها، وأنتَ تقولها لي يا بابا، أعيشُ كل حرفٍ من حروفها.

قال: كيف وصلتِ إلى هنا؟

قالت: أوصلتني ماما مع عمّو، ورجعا.

قال: تقصدين زوجها؟

قالت: نعم، حاولتُ كثيراً أن أقول له: أبي، لكنّني لم أستطع رغم أنّه ربّاني ولا يناديني سوى: ابنتي. كنتُ أشعر بأن قَول: أبي، لغيرك يُعدّ خيانة لك، وأنك لن تكون راضياً عنّي أينما كنت.

في النهاية رأيتُ أن الحل الوسط أن أقول له: عمّو. لقد شرحتْ لي أمّي الظروف القاسية التي عانتها بعد غيابك، واضطرّت للزواج كي تحميني وتحمي نفسها.

لبث ينظر إليها وهو يتخيَّل مراحل طفولتها التي رسمها، أمعن النظر إليها، رأى تشابهاً بينها وبين اللوحة الأخيرة التي رسمها لها، تُرى هل كان يراها بحدسه، هل الحدس هو الذي رسمَ تلك اللوحة، ملامح الوجه بدت قريبةً من ملامح وجهها. نهض من مجلسه، غاب قليلاً، ثم عاد يحمل اللوحات التي رسمها. مدَّها إليها وهو يقول: كنتُ أتخيَّلك تكبرين سنة بعد سنة، وكنتُ أرسم لك كل سنة لوحة.

تناولت اللوحات، وأخذت تنظر إليها بدهشةٍ مِن اللوحة الأولى والدموع تنهمر من عينَيها. عندما بلغت اللوحة الأخيرة، قالت: حقّاً إنّها تشبهني يا أبي، لو سمحتَ لي سوف أحتفظ

بها، هذه اللوحات هي أغلى ما يمكنني أن أقتنيه، من أغلى شخصٍ في حياتي.

قال: هي لكِ يا بنتي.

***

أخذ الوقتُ يمضي سريعاً، كما لو أن الساعة تحوَّلت إلى دقيقة، والدقيقة إلى ثانية، أسرع وقتٍ شهده في حياته. لو كان الأمر بيده، لأوقف عقارب الساعة حتى تبقى معه وقتاً أطول، أو حتى تبقى ولا تخرج أبداً. لم يكن يعلم بأن دفقات الأبوَّة حميميّة إلى هذه الدرجة، للتو أدرك معنى (قرّة العين) أدرك بأن للعين قرّة لا يمكن للمرء أن ينتشي بالنظر بها إلّا عندما تقع عيناه على الابن، على الضنى، حينها فقط، تفصح تلك القرّة عن نفسها، وتنثر عبقها في أوصاله.

التقطت ذرة غبار خفيفة عن بنطلونه وقالت: خيّرتني ماما أن أعود معها اليوم، أو أبقى معك، وهي تنتظرني في بيت صديقةٍ قديمة لها اسمها (لميس)، هل تأذن لي يا أبي أن أهاتفها كي تعود إلى البيت وأبقى معك لمدَّة يومَين؟

نظر إليها، قبّلها من جبينها وقال: هذه أمنيتي يا بنتي، كنتُ قلقاً من تركك لي بسرعة.

ابتسمت في هدوء وطمأنينة، وأجرت الاتّصال مع أمّها، أخبرتها بأنّها سوف تمكث يومَين مع أبيها وطلبت منها أن تأتي بعد غدٍ الأربعاء لتأخذها.

راوده شعورٌ بأنّه سيمضي العمر كلّه مع ابنته من خلال هذين اليومَين، وبعدها سيُنفّذ الانتحار، تحوَّل اليومان أمامه إلى عقدَين بهيَّين مِن الزمن. دخلت المطبخ لتعدّ طعاماً، فدخل معها كي يعينها في إعداد الطعام. قالَت: هذا هو مطبخ أمّي أليس كذلك؟

هزّ رأسه بالإيجاب، وبعد قليل قال: منذ عشرين سنة وحتى الآن، لم يدخله أحدٌ غيركِ.

جلس يتناول الطعام مع ابنته، عشرون سنة مضت لم يتناول فيها الطعام مع امرأة سوى ما تناوله من طعام في بيت لميس على عجل، وهذه هي المرة الثانية، لكنها مختلفة تماماً عن الأولى، فهو الآن يستمتع بنكهة تناول الطعام مع أقرب كائن إلى فؤاده، رغم أنه طعام بسيط، (جز مز)،عدّة حبات من البندورة، قامت بطهيها بالزيت، أكلة لذيذة كانت هناء تطهوها له بين حينٍ وآخَر، وكانت أحياناً تطهوها مع البيض المقلي، والثوم، وكان يقول بأن البندورة لذيذة كيفما كانت، نيئة، أو مطهية، ولذلك كان أحياناً يحمل حبة بندورة كبيرة ناضجة ويأكلها مع قليلٍ من الملح والخبز، ويستمتع بأكلها.

أخذ يتناول كل لقمة مع الخبز بصدرٍ منشرح وصفاء ذهن وهو ينظر إليها تشاركه الطعام، وذاكرته تسترجع تلك الأيام الخوالي عندما كان يجلس مع أمّها في نفس المكان ويتناولان الطعام.

عندما انتهى اليومان، كم تمنّى فيما لو طلب منها أن تمكث عنده أكثر، لكنه آثر أن يترك لها حرية الاختيار، كما أنّها ملتزمة بدراستها الجامعيّة، ولا بد أن تستكملها. قالت له: إذا طلبتَ منّي أن أبقى وأعيش معك يا بابا، سأفعل دون أيّ تردّد.

ضحك وهو يربت على كتفها، وتبادر إلى ذهنه بأنه لم يضحك منذ سنواتٍ طويلة، كان ضحكاً صافياً يضحكه القلب وتظهر أماراته على حركة الفم، ضحكت هي الأخرى وهي تنظر إليه يضحك بكل ذاك الصفاء، فأشرق وجهها أمام ناظرَيه أكثر.

قال وهو يمسح على شعرها كما لو أنّها طفلة صغيرة: أريد أن تبقين معي دائماً يا بنتي، لكن لا أطلبه منك.

نضح وجهها بالسرور وقالت: فهمتُ عليك يا بابا، سوف أتّصل بك كل يوم حتى أطمئن عليك، وسأجيء كل يوم خميس، أقضي يوماً عندك، وسأعود يوم الجمعة حتى لا أنقطع عن دوامي في الجامعة.

زيارة هناء

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصراً عندما رُنّ جرس الباب، خطا إليه مسرعاً بشكلٍ تلقائي، وعندما فتح، وقعت نظراته على وجه هناء، وكانت ترتدي ثوباً رمادياً، لبثا نحو دقيقة واقِفَين ينظر أحدهما إلى الآخَر وبه شوقٌ عميقٌ أن يضمّه إلى صدره، ولكنه يتردّد.

تفضّلي. خرجت الكلمة من حنجرته بغصة.

شكراً. قالتها ومدَّت خطواتها إلى داخل بيتها الذي لم يعد بيتها، بيتها الذي كانت عندما تعود إليه، تفتح بابه بالمفتاح الذي بحوزتها وتدخل، أو يفتح لها الباب إذا كان متواجداً في البيت، فتدخل دون أن يقول لها: تفضّلي.

أخذت تقبّل ابنتها كما لو أنّها غابت عنها سنتَين، وليس يومَين، وفي تلك اللحظات لا تدري لماذا راودها شعورٌ بأنَّها تُقبّل في وجهها جزءاً منه، ولذلك طبعت القبلات بعمقٍ لفت نظر الابنة أيضاً كما أنَّها لفتت نظره.

انهمرت دموعٌ مِن عينَيها وهي توزّع نظراتها على الجدران والسقف، دخلت إلى المطبخ، إلى غرفة النوم، جالت في كل ركن من أركان البيت، وهي تنظر وتذرف الدموع، بينما كان إدريس وأناهيد يتتبعانها وينظران إليها بصمت.

قالت: ماذا ستفعل يا إدريس في هذه المرحلة؟

أجفله السؤال الذي لم يكن يتوقَّعه، تذكّر بأنّه أعدّ نفسه للانتحار، والانسحاب من الحياة، فحاول ألّا تظهر أمارات ذلك عليه، وقال: لا أعرف بالضبط ما الذي سأفعله.

قالت: في أيّ مرحلة من مراحل العمر يمكن للإنسان أن يبدأ بدايةً جديدة من حياته، الحياة تغتني بكل مقومات التجدّد يا إدريس، ولكل مرحلة من مراحل العمر جمالياتها. كن واثقاً بأن الله دوماً لديه العَوَض، عليكَ ألّا تستسلِم، أو تيأس، بل أن تأخذ الدرس البليغ من خطيئَتك الفادِحة في عدم الحرص، وتلجأ إلى ربِّكَ بالعَوَض. فالذي أعطى أول مرة، لديه ما هو مثل، وما هو أفضل. وكما يقال: (أضخم الأبواب مفاتيحها صغيرة).

لبث ينظر إليها وهو يشرد.. المرأة التي لم تغب عن باله يوماً واحداً خلال كل تلك السنوات.. يا إلهي.. كيف يمكن لرجلٍ أن يتعلَّق كل هذا التعلّق بامرأةٍ، وتتحوَّل إلى معادلٍ للحياة برمّتها؟ كم حاول أن ينزعها من مخيّلته، أن ينساها، ولكن كل محاولاته كانت تبوء بالفشل، كم شهد هذا البيت سهراتهما الطويلة وهما يستمعان إلى أم كلثوم، كان ينظر إليها ويُردّد مع أم كلثوم: (عودت عيني على رؤياك، وان مرّ يوم من غير رؤياك ما ينحسبش من عمري).

دخلت أناهيد إلى المطبخ تعدّ القهوة، فأردفت تقول: برأيي حاول أن تعود إلى استئجار دكّان وبع فيه الأقمشة، كانت مهنة مربحة جداً، عشنا منها في بحبوحة.

أعاده كلامها إلى زمنٍ مضى، مضى وبدا بعيداً، وأنه لن يعود، كان ذلك عندما دخلت تلك الفتاة التي بدت خجولة إلى دكّانه، وشعرها مضفور في جديلتين تتدليان فوق صدرها، وكان جالساً خلف الطاولة. مضت بجانب الأقمشة المصفوفة على الرفوف فوق بعضها وهي تنظر إليها تارةً، وإلى أسعارها تارةً أخرى. كانت تنظر بإمعان، وتلمس الأقمشة، كما لو أن لديها خبرة في نوعية الأقمشة وجودتها.

توقَّفت أمام قماشٍ قرمزي، وطلبت منه أن يقص لها قطعةً لتفصيل فستانٍ لها، فنهض من خلف الطاولة، حمل لفافة القماش، وضعها على الطاولة، قاس منها بشريط المقاس ثلاثة أمتار ونصف، وقصّها بالمقص في قصّةٍ سريعة واحدة. ثم وضعها في كيسٍ أنيقٍ يحمل اسم المحل، ومدّه إليها قائلاً: مبروك يا آنسة. فأنقدته الثمن وخرجت وهي تشكره. وعندما أعاد اللفافة إلى موضعها على الرَّف، وعاد إلى طاولته، وقعت عيناه على قِلادة ذهبيّة على الأرض بجانب الطاولة حيث كانت الفتاة واقفة. حملها وتوقّع بأنّها سقطت منها دون أن تنتبه، سارع إلى باب الدكّان والقِلادة بيده، جال بنظراته في

الشارع، ولم يرها. فعاد ووضع القِلادة في درج النقود، وبعد يومين رأى نفس الفتاة تدخل إلى الدكّان، وكان منشغلاً ببيع بعض قطع القماش لعروس، ومعها امرأة أُخرى، كانا يختاران أصناف وألوان الأقمشة بعناية، عند ذاك استأذنته أن تجلس على كرسيٍّ كان في أحد اركان المحل، فقال: تفضّلي. لبثت جالسة نحو ربع ساعةٍ حتى خرجت المرأتان، فقالت: قبل يومَين أتيتُ إلى هنا واشتريتُ قطعة قماش لفستان، وأضعتُ قِلادة كنتُ قد اشتريتها من الصائغ للتو، ووضعتها في حقيبتي، عندما وصلتُ البيت، لم أجدها، كنتُ في ذاك اليوم ذهبتُ إلى أماكن عديدة، واشتريتُ بعض المستلزمات. سألتُ عنها في تلك الأماكن ولم أجدها، بقي هذا الدكّان، لعلّها سقطت مني هنا عندما أخرجتُ النقود وأعطيتك ثمن القماش.

كان يستمع إليها وهو يبتسم ويتأمّلها كيف تشرح بالتفاصيل ما حدث معها، ولم يعقب على كلامها بشيء، وسحب القِلادة من الدرج، ومدَّها لها. اتَّسعت عيناها وهي تنظر إلى القِلادة تارةً، وإليه تارةً أُخرى. تناولتها من يده وشكرته. في تلك اللحظات، تحرَّكت مشاعر غريبة في داخلها تجاهه، ابتسمت بسمة إعجاب به وهي تودّعه، فبادلها بابتسامةٍ، وعندما خرجت، شعر بأنَّها تركت بصمة في قلبه، تلك البصمة التي كانت أساس زواجه منها.

جلس على الأريكة قبالتها، ضمّ وجهه بكفَّيه وهو ينظر إلى الأرض، فقالت بعد قليل من الصمت الذي رانَ عليهما: بعد أن تستقرّ في عملك، تزوَّج يا إدريس، لا تترك نفسك دون امرأة، سوف تؤنسك، وتملأ لك حياتك، تنجب لك أطفالاً، تجعلك تُكوّن عائلة وتشعر بالمسؤولية تجاهها. للوحدة تداعياتها السلبية، أرجوك يا إدريس، لا تتباطأ في اتّخاذ القرار، إن لم يكن من أجلك، فمن أجل ابنتنا، كلّما رأتك سعيداً، سعدتْ، وكلما رأتك حزيناً، حزنتْ. وأكملت حديثها وهي تنظر إليه: جئتُ مع أناهيد كي أرشدها إلى البيت، ولن أجيء مرة أُخرى، سوف تزورك لوحدها في الأوقات التي تريدها، كانت دوماً تسألني عنك، تطلب منّي أن أتحدّث عنك، كانت أسئلتها كثيرة، لا تنتهي، وهي الآن في أسعد أيام حياتها لأنها رأتك، لا يمكن لك أن تتصوَّر مدى سعادتها عندما أخبرتها بعودتك، وأنّها سوف تلتقي بك. انس كل شيء يا إدريس وتذكَّر بأن لك ابنة تُريد أن ترفع رأسها بك، تفتخر بك، تراك قدوة شامخة لها.

عندما أتت أناهيد بالقهوة، تناولتها على عجل، ونهضت دون أن تضيف كلمة أُخرى، فنهض هو الآخَر واتَّجه إلى إحدى الغرف، وعاد يحمل الحقيبة الصغيرة بيد، وكيس النقود باليد الأخرى، ناولهما لهناء قائلاً: كل ما تحتويه هذه الحقيبة فهو

من حقّكِ، ودفتر التوفير، ألغيته وسحبتُ ما كان فيه من النقود مع الفوائد، وهي موجودة في هذا الكيس.

وخزها قلبها وهي تصوّب نظرةً نافذةً إليه وقالت: لا يا إدريس، هذا لك، وأنتَ مُقبلٌ على فتح صفحةٍ جديدةٍ من حياتك.

عند ذاك قالت ابنته وهي تقبّله: غداً الخميس لن أجيء، واعتباراً من الخميس الذي يليه سأجيء كل أسبوعٍ كما اتفقنا، خذ بالك من صحتك يا بابا. فهزَّ رأسه وهو يخرج في وداعهما، توقَّفوا على الرصيف تحت شمس العصاري بانتظار سيارة أجرة كي تأخذهما إلى الكراج، التقت نظراته بنظراتِها، قرأ في ملامح وجهها بأنَّها تخيَّلت خروجهم من البيت كعائلة صغيرة، وذهابهم إلى إحدى الحدائق، وقضاء بعض الوقت، ثم من هناك ذهابهم إلى أحد المطاعم، لتناول العشاء والعودة إلى البيت، وهذا ما قرأته هي أيضاً في وجهه عندما التقت نظراتهما.

في تلك اللحظات لمح بأنَّها همَّت أن تقول شيئاً، ولكنها أحجمت. وبعد قليلٍ ظهرت سيّارة قادمة في منتصف الطريق، فأشار لها بالوقوف، وأنقد السائق الأجرة طالباً منه أن يوصلهما إلى الكراج.

كان ذهابهما قاسياً عليه وهو واقفٌ على الرصيف ينظر إلى السيّارة حتى توارت عن أنظاره، فانتابه شعورٌ بأنهما ذهبتا وتركتاه في بَيداءٍ مهجورة.

الفصل الثالث

ثمن الحماقة

عاد الصمتُ يخيّم بكآبةٍ على إدريس وعلى البيت: لا أستحقّ أن أعيش، الحياة ليست لي، بل لِمَن يعرف قيمتها، لقد أفرطتُ كثيراً، تماديتُ كثيراً، قتلتُ رجلاً بغير حق، حرمته من حياته، من تحقيق أحلامه، من تكوين عائلةٍ، وليتَ الأمر كان قد انتهى عند ذلك، بل تسبّبتُ في مقتل أخي الوحيد أيضاً، أيّ أحمقٍ كنت حين ركضتُ في الشارع وبيدي المسدّس، أما كان لي أن أتباطأ قليلاً، أن أهدأ، أن أعتبر بأنّني لم أسمع شيئاً، وأن كل ما قالته (نجوى خانم) كان هراءً في هراء.

والآن: لماذا أعيش؟ ما الذي سأفعله؟ كيف أرفع رأسي وأمشي في الطرقات؟ ماذا أقول لنفسي؟ للآخرين؟ لابنتي؟ مهما أخفيتُ عنها، فإنّها ذات يومٍ ستعرف، ومَن سوف تقبل الزواج من رجل أمضى عشرين سنة خلف القضبان؟

قال ذلك في قرارة نفسه واتّجه إلى الحبل الذي كان قد أخفاه في الحقيبة وأقفل عليه، فتحها، وفتح الكيس الأسود الذي يستقرّ فيه الحبل، رمقه، تخيَّل أن ابنته ستجيء في الأسبوع القادم كي تراه، تخيَّل بأنّها بدل أن تراه في استقبالها، تراه مُعلَّقاً

من رقبته في السقف: ألا يكفي ما سبَّبته لها نتيجة حرمانها منك عشرين سنة؟ أما ودَّعتك على أمل أن تعود إلى زيارتك؟ ألا يكفي بأنك خذلتَ زوجتك بزواجها منك؟ أتريد أن تخذل ابنتك أيضاً بأبوّتك لها؟ أن تيتّمها، تفجعها، فتعود إلى البيت يتيمة ومفجوعة وهي مطأطأة الرأس وكانت قد جاءت لتمضي يوماً جميلاً ودافئاً بحنان الأب معك؟ ألا يكفي أن نجوى أحالتك إلى قاتل؟ إلى سجين؟ أتريد أن تحيلك إلى قاتلٍ لنفسكَ أيضاً؟ أن تجعلك تخسر الدنيا والآخرة معاً؟ وهي التي رفضت حتى أن تستقبلك عندما أحسَّت بأنك يمكن أن تتسبَّب في خلافٍ بسيطٍ قد ينشب بينها وبين زوجها، وأنتَ الذي دمَّرتَ حياتك الزوجية الآمنة من أجلها.

في تلك اللحظات انبعث نداءٌ من داخله: الدُنيا دَوّارة يا إدريس، لكل دَورة حكمتها، مفرحة كانَت أم مؤلِمة، كيف تُريد أن تنضج ولا تتقلَّب بك الحياة يمنةً ويسرةً؟

الآن تعرَّفتَ على الحياة أكثر، اكتشفتَ بأنك لم تكن تعرف عنها شيئاً، الآن وقد نضجت في الحياة، تُريد أن تخرج منها؟! في الخامسة والأربعين تكون الحياة أجمل، يكون الزواج أجمل، تكون مشاعر الأبوَّة أجمل، يكون مفهومك للحياة أجمل، انس نجوى وما يمكن أن تلحقه بك، تذكَّر أناهيد وهي وردة تتفتَّح أمام عينَيك، تملأ حياتك بعبيرها، تخيَّل امرأةً تدخل حياتك،

تُسافران معاً، تقضيان شهر العسل معاً، لقد دفعتَ ثمن حماقتك عشرين سنة من عمرك وطُويَتْ تلك الصفحة، دعها مطويّة إلى الأبد ولا تقربها.

خالد

عادت مشاهد السجن إلى مخيّلته، مئات الرجال كانوا يدخلون السجن، ويخرجون منه بتحريضٍ من النساء، وكانت سنوات السجن تتفاوت، بين سنة، إلى عشرات السنين، إلى المؤبّد، إلى الإعدام، وكالعادة كانت الأسباب كلّها مكرّرة وتافهة، وتؤكّد غباء الرجل واستجاباته المتهوّرة لتحريض المرأة.

صديقه الحميم (خالد) الذي تعرَّف عليه في السجن، قتل محامياً عندما أقامت زوجته عليه شكوى تطلب فيها الطلاق.

قال: أجل يا إدريس، كنتُ غبياً، زواجي منها منذ البداية كان مبنياً على الغباء، لم أكن أحبها، ولم تكن تحبني، تلك المرأة كانت لعنة في حياتي، كنا نعيش معاً حياة مليئة بالاستفزازات، كانت تستفزّني بكلماتِها ومواقفها، وكنتُ أستفزّها بكلماتي ومواقفي، كانت تقول العبارات التي تستفزّني، تتصرّف التصرّفات التي تستفزّني، وكنتُ أبادلها الاستفزاز بالاستفزاز. وذات يومٍ فوجئتُ بها تذهب إلى بيت أهلها دون أن تُخبرني، واتصلت بي من هناك وطلبت مني أن أطلّقها. لكنّني رفضتُ ذلك بغبائي المُفرَط، فأوكلتْ محامياً، وأخذت تتّهمني بأمور لم أفعلها حتى تبرّر طلب الطلاق. وعندما سألتها عن سبب هذه

الافتراءات، قالت لي بأن المحامي هو الذي طلب منها أن تتهمني بهذه الأمور حتى تستطيع أن تحصل على الطلاق، ومن غير ذلك فإنّها لن تحصل عليه.

عند ذاك حملتُ سكيناً وذهبتُ إلى المحامي في مكتبه، أذكر كان الوقتُ مساءً وكان القمر شديد السطوع. نقرتُ على باب المكتب، فجاء صوتُه: تفضّل.

أدرتُ أُكرة الباب ودخلت، كان جالساً خلف مكتبه، وكانت ثمة امرأة في نحو الخامسة والعشرين من عمرها جالسة على طرفٍ من الأريكة. عندما رآني، امتقعت ملامحه وهبَّ واقِفاً وأنا أرمقه بعمق، أحسستُ بأنّني أمام كتلة موبوءة، لم تكن في وجهه ذرة واحدة من نقاء الإنسان، بدا لي كأنّه يتغذى من لحوم البشر.

قال: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ما تريده، عليك أن تقدّمه إلى المحكمة.

قلت: جئتكَ كي تُطفئ النار وتكفّ عن إلصاق التهم المزوَّرة بي، وإلّا سأعرف كيف أوقفك عند حدَّك. فانفعل على الفور وتقدَّم إليّ وغدا يدفعني كي يُخرجني بالقوة من مكتبه، عند ذاك أخرجتُ السكين من جيبي، وانهلتُ عليه بالطعنات حتى قتلته، شفيتُ غليلي منه، وانتابني شعورٌ بأنّني اجتثثتُ جرثومةً خبيثة كانت تسري في جسد المجتمع. وقبل أن أخرج

لفتت تلك المرأة نظري وكانت قد انزوت في زاويةٍ من المكتب وهي ترتجف ذعراً، تقدَّمتُ إليها وقلت: صارحيني ولا تكذبي، وإلّا قتلتك بنفس الطريقة التي قتلته بها.

فقالت وأسنانها تصطكّ: نعم، لن أكذب.

فقلت: هل ضاجعكَ هذا الوغد؟

قالت: نعم.

قلت: كم مرة؟

قالت: كثيراً، كلّما كان يطلب منّي أن أجيء إليه في المكتب

قلت: لماذا؟

قالت: لأنّه يفعل ما أريد دون تأخّر، ويأخذ منّي فقط نصف أجر المحاماة عن دعوى الطلاق التي رفعها لي على زوجي.

قلت: وهل ضاجعكِ اليوم؟

قالت: لا، كان على وشك أن يقفل الباب، ودخلتَ أنت.

الآن يا إدريس، صرتُ أستوعب بأن المحامي في الواقع كان سيريحني من الاستفزازات التي كنتُ أعيشها معها، وزوجتي أيضاً كانت ستريحني من ذلك، فقد وقع الخبيث على الخبيث وتفاعَل معه، لكنّني كنتُ غبياً، كنتُ شديد العِناد، كما لو أن لا نساء في العالَم غيرها، كما لو أنّها كانت جوهرة ثمينة، وخشيتُ أن تضيع منّي. كان يمكن لي ببساطة شديدة أن أطلّقها، وأتزوّج

وأستمتع بحياتي بعيداً عن كل أشكال الاستفزازات، وأترك الخبيث مع الخبيث، لكنّني كنتُ شديد العناد، شديد الغباء وأصررتُ أن أفصل الخبيث عن الخبيث، فحوَّلتُ نفسي إلى مجرم، إلى سجين بسبب غبائي وعنادي. الحياة واسعة وغنية، أوسع وأغنى من أن تضيّقها علينا امرأة، أو تضيّقها علينا مشكلة تواجهنا مهما كانت.

أتاح الله لي حياةً جميلة كي أعيشها وأستمتع بها، ولكنّني لم أعرف قيمتها الحقيقيّة إلّا بعد أن أوديتُ بنفسي إلى هذا المكان.

ثم صمتَ لثوانٍ وأردف يقول: عندما أردتُ الزواج من تلك المرأة، وعلم أحد أصدقائي وكان يكبرني بعشر سنوات، قال لي كلاماً لم أعرف قيمته إلّا متأخّراً، قال: إيّاك والتسرّع يا خالد، اختر لنفسكَ زوجةً معتبرة من بيتٍ معتبر، تنأى بنفسها، تنأى بأهلها، بأولادها أن تكون مُطلَّقة محاكم. يومها، تجاهلتُ ما قاله لي، ثم تبيَّن لي بأنه قال لي ذاك الكلام عن خبرةٍ عميقة. أجل يا صديقي، منذ البداية يعرف المرء بأن هذه المرأة صالحة أم فاسدة، هناك إشارات جلية تصله، ولكنه يتغافَل عنها، وإذا استمرَّ في ذلك، فلا بدّ أن يدفع ثمن تغافله، وأحياناً يكون الثمن باهِظاً بشكلٍ مروعٍ لم يكن يخطر له على بال. عندما تسترجل المرأة في البيت، ولم تعد تحسب حساباً لزوجها،

وتراه ساكتاً، ترتفع درجة الطغيان لديها وتخطّط لخيانته، ثم للتخلّص منه.

وهو يستمع إلى خالد، غدا يسترجع بعض الوقائع التي سمعها، وانتشرت في المدينة، يسترجعها ويدقّق فيها كما لو أنّها حصلت للتو: زوجة قتلت زوجها الشرطي بمسدسه عن طريق الخطأ.

ابنة مراهقة أطلقت النار على أبيها لأنه لم يشتر لها هاتفاً.

امرأة قتلت زوجها بمشاركة أحد أولادها.

امرأة وضعت السم لزوجها في الطعام وقتلته.

امرأة قتلت زوجها بالتعاون مع أحد أصدقائه المقرَّبين.. وتداعت إلى ذاكرته الأنباء التي سمعها: امرأة.. وامرأة.. وامرأة.. وكان خالد يتحدَّث: .. هل سيأتي يومٌ وأخرج فيه من السجن يا إدريس، سأحافظ على كل يوم حريّة أعيشه، أقدّر كل ساعة فيه ولا أفرّط بها، سأستنشق نسيم الحريّة وأنا أمشي في الشوارع، في الأزقة، سأسافر، أتناول الطعام في المطاعم، أحتسي الشاي في المقاهي.

توقَّف خالد عن الكلام، دمعت عيناه، وبعد زهاء دقيقتَين من الصمت، أستأنف بنبراتٍ مثقلة بالنشيج: من أجل كل ذلك، أواسي نفسي، أقول لها في دجى الليل عندما يخيّم الصمت على المهجع: لولا الليل، لَما كان هناك نهار، لولا

الغروب لما كان هناك شروق، لولا الشتاء لَما كان هناك صيف. من جليد الشتاء، وقيظ الصيف، يولد بهاءُ الربيع، تزهر الورود على الأشجار. هكذا يا نفسي، عقب مزاجٍ مُعكَّر، أنعم بلذَّة صفاء الذهن. عند ذاك تهبّ عليّ نسمات السكينة، أدرك بأن حاجَتي إلى الشدائِد هي كحاجتي إلى الرخاء، حاجَتي إلى المرض كحاجتي إلى العافية، حاجَتي إلى الضيق كحاجتي إلى السعة، حاجتي إلى الحزن كحاجتي إلى الفرح.

أما كنتِ ترين النتائج معي يا نفسي، كيف أن الذين كنتُ أظنّهم أصدقاء، في الحقيقة كانوا أعداء، هجمَتْ الشدائِد عليّ وأظهَرَت معادن غِلَّهم نحوي.

بعض الذين كنتُ أظنّهم أعداء، كانوا في الحقيقة أصدقاء، هجمَتْ عليّ الشدائِد وأفصحت عن معادن حبّهم لي. أهدهد نفسي، وتهدهدني نفسي حتى أغفو.

طاهر

استمرَّ إدريس في الشرود وهو يستردّ تلك الطقوس التي عاشها في السجن، عادت صورة السجين طاهر ترتسم أمام عينَيه، طاهر الذي كان يقول: تمتلك المرأة غوايةً يمكن لها أن تحرّض الرجل به وتحقّق من خلاله مآربها، وعندما يتحقَّق لها ذلك، تُدرك آنذاك مدى غباء ذاك الرجل مهما كانت أواصر العلاقة بينهما. ولكنها تبقى تنظر بوقارٍ إلى ذاك الرجل الذي ترفَّعَ ونأى بنفسه ولم يستجب لتحريضها.

كان يرى بأن تدخّل أي شخص، أو أيّة جهة رسمية أو غير رسمية في الخلافات التي تنشب بين الزوج وزوجته، يُفاقم عليهما الخلاف ويؤجّجه مهما كان شكل هذا التدخّل. ويقول: إذا أردت أن تفكك الأسرة عن بكرة أبيها، اقحم السلطة على الخلافات الزوجيّة في البيوت.

وذات مرَّة كانوا يجلسون معاً ضمن جماعتهم، وكان الحديث ساخِناً بينهم، فقال طاهر: بعد الذي حصل معي، تبيَّن لي بأن قانون مناهضة العنف ضد المرأة، زاد في حالات العنف عليها، بل وجعل العنف يحتدّ ويتصاعد إلى درجة قتل المرأة أحياناً بطرقٍ بشعة جدّاً.

قال معاذ: كيف وهو يدعو إلى حماية المرأة من عنف الرجل؟!

نظر طاهر إليه نظرة طويلة وقال: حتى الآن أمضيتُ خمس عشرة سنة في هذا السجن، وكلّما يدخل سجينٌ جديد، أتحدَّث معه عن الحيثيّات التي جعلته يدخل السجن بسبب المرأة، وأدوّن هذه الإفادات عندي، حتى أنشرها على شكل كتابٍ بعد خروجي من السجن. ثم أردف يقول بعد قليلٍ من الصمت: أحياناً يحدث خلاف طبيعيّ بين الرجل وزوجته، فتكون الزوجة عصبيّة بعض الشيء، وقد لا تتمالك زمام نفسها وتجري اتصالاً بشرطة العنف الأُسَري، فتأتي بشكل سريع وتقتحم على الزوج بيته الزوجي، تقحم نفسها في تفاصيل حياته الزوجيّة، فلا يقبل الزوج بهذا الانتهاك، فيُطلّق زوجته لتبدأ بذلك رحلة المحاكم، وهذا ما حصل معي شخصيّاً.

ثم صمتَ قليلاً واستطرد يقول: كنتُ أريد أن أبيع البيت الذي أملكه، وأشتري مطعماً، وفيما بعد إذا تحسَّن وضعنا الاقتصادي، نترك البيت المُستأجَر، ونشتري بيتاً، لكن أمّ زوجتي تدخَّلت في الأمر وأقنعت ابنتها بأن تمانع من بيع البيت. هنا جاء دور شرطة العنف الأُسَري لتفسد حياتنا الزوجية وتقلبها رأساً على عقب وتحيلني إلى قاتل.

وضع كفَّيه على صدغَيه وضغط عليهما قائلاً: كان كل شيء سيمضي بهدوء رغم تدخّل حماتي، لأنها لم تكن قادرة على منعي من القيام بالمشروع الذي خطّطتُ له لتحسين وضعنا المعيشي.

سجلتُ البيت في المكتب العقاري، وبعد عدَّة أيام اتصل بي صاحب المكتب وقال بأن أحد الأشخاص يريد أن يشتري البيت وموافق على السعر المطلوب، وسوف يأتي به مساءً حتى يرى البيت ويتحقّق من المواصفات.

أخبرتُ زوجتي كي تستعدّ لذلك، وكانت أمّها في زيارتنا، وبعد نحو ربع ساعةٍ من حديثٍ خافتٍ دار بين زوجتي وأمّها، قالت حماتي متَّجهةً بكلامها لي: لا تبع البيت يا طاهر، إذا بعتَ البيت وخسرتَ في مشروع المطعم، سوف تبقى ابنتي وأولادكما في بيوت الأجرة طول العمر، ولن تستطيع أن تشتري بيتاً.

قلت: لا علاقة لك بي، وأرجو ألّا تتدخّلي في حياتي الشخصيّة.

قالت: هذه حياة ابنتي أيضاً.

قالت زوجتي: أمّي معها حق وتريد مصلحتنا يا طاهر.

قلت: سوف أبيع البيت وأنفّذ مشروعي سواء ربحت أم خسرت.

قالت حماتي وكانت امرأة بدينة، ضخمة الثديَين، ناهزت الخمسين من عمرِها: لن أدعك تبيعه وأنا حيّة على وجه الأرض.

عند ذاك ما أردتُ أن يتصاعد الحوار بيننا، فاتجهتُ إلى غرفة أخرى، وجلستُ بانتظار أن يأتي المشتري. وبعد نحو ساعةٍ من بقائي في الغرفة التي جلستُ فيها، فتح ابني (ماجد) البالغ من العمر عشر سنوات الباب وقال بأن الشرطة تريدني!

فوجئتُ بِما سمعت، وخرجتُ من الغرفة ورأيتُ دورية من شرطة العنف الأسَري في الصالون، وكانت زوجتي واقفة وبعض ثيابها ممزّقة وتظهر خدوش على وجهها، قلت لها باستغراب: ماذا حصل؟!

هزَّت حماتي رأسها يمنةً ويسرة وقالت وهي تبتسم ابتسامة شرّ: سبحان الله على التمثيل، يُظهر نفسه بأن لا علم له بِما حصل، كأنه ليس هو الذي اعتدى على ابنتي بالضرب أمام عينَي، ولولا أنّني سحبتها من بين يدَيه لاستمرّ في ضربها، ثم أنّه هددني وهددها بالقتل. والحمد لله اتصلنا بكم، فجئتم بسرعة وأنقذتمونا من جريمة قتل كانت سوف تُرتَكَب بحقّي وحق ابنَتي.

عندها تقدَّم إليّ عنصران من الشرطة، قيّدا يدَي وقدمَي، واقتادوني إلى المخفر، أمضيتُ ذاك اليوم في غرفة التوقيف،

وفي اليوم التالي أخذوني إلى المحكمة، فأمر القاضي بتوقيفي وإيداعي في السجن.

وبعد عشرة أيامٍ من وجودي في السجن تقدمتُ بطلب إخلاء سبيل، فأُخلي سبيلي بكفالةٍ ريثما يأتي وقت المُحاكمة في التهمة الموجّهة إليّ، وكتبتُ تعهّداً بعدم تكرار الاعتداء، أو التهديد سواء لزوجتي أو لحماتي.

***

رفع يدَيه عَن صدغيه، وأردف يقول وهو ينظر إلى سقف السجن المرتفع وهم يستمعون إليه بإنصات: عدتُ إلى البيت وقرّرتُ أن أطلّق زوجتي التي احتالت عليّ بتلك الطريقة اللئيمة، طرقتُ الباب، وعندما فتحته زوجتي ورأتني، أغلقته بقوَّةٍ في وجهي، طرقتُ مرَّةً أُخرى، لكنها لم تفتح. لبثتُ أمام الباب أطرق دون أن تفتح، مشيتُ إلى ناصية الشارع وعدتُ أطرق الباب وأقول: افتحي الباب، هذا بيتي وليس بيت الذين خلَّفوك ورموكِ عليّ.

جاء صوت حماتي من خلف الباب: بعد قليل سوف تعلم إن كان بيتك، أم بيت ابنتي وأولادها. ليكن بعلمك، لقد جاء المشتري في ذاك اليوم وطردناه، وطلبنا من صاحب المكتب العقاري أن يشطب البيت من سجلّه، لأنّنا لن نبيعه، وقلنا له

بأنّك صرتَ في السجن، وأدام الله علينا نعمة شرطة العنف الأُسَري.

قلتُ لها: استبدلي كلمة (نعمة) بـ (نقمة) أفضل لكِ.

وأنا واقفٌ أتحدَّث معهما من خلف الباب المغلق، فوجئتُ بسيارة شرطة العنف الأُسَري تفرمل بجانبي، وعلى الفور نزل منها عنصران، وكالمرة السابقة قيّدا يدَي واقتادوني برفقة زوجتي وأمّها إلى المركز. عندها أفادت زوجتي بأنّني طلبتُ منها أن تسقط ادّعاءها السابق عليّ أو أنّني سوف أقتلها وأقتل أمّها، ولذلك دفعتني إلى الخارج وهي تدافع عن نفسها وأغلقتْ الباب.

رأيتُ نفسي في دوّامة، كما لو أن الذي يحصل معي في حلم، وليس في واقع، قضيت الليلة مرة أُخرى في ذات غرفة التوقيف، وفي اليوم التالي اقتادوني إلى نفس القاضي الذي كان صغير الحجم، وصوته يشبه نقنقة الدجاج، فأحالني مرّةً أُخرى إلى السجن بتهمة التهديد بالقتل، وعدم الوفاء بالتعهّد الذي كتبته عندما أُخلي سبيلي.

مكثت شهراً في السجن، ثم خرجتُ مرة أُخرى بكفالةٍ بعد أن كتبتُ تعهّداً بعدم تكرار ما حصل تحت طائلة عدم الخروج بكفالة في حال التكرار، والمكوث في السجن ريثما يحين موعد المحاكمة عن التهمتَين، وكل تهمة لا تقل عن ستة أشهر

سجن، ولا تزيد عن سنتَين، وكانت زوجتي قد أوكلت محامياً لذلك.

عدتُ إلى البيت، توقَّفتُ أمام الباب، رفعتُ يدي لأطرقه، لكنّني تردّدتُ تحسّباً لاتّصالها بالشرطة مرة أُخرى، فذهبت إلى بيت أحد جواري وطلبتُ من زوجته أن تذهب إلى زوجتي وتأتي بِها إلى بيت ذاك الجار حتى نتّفق. فرحَّبت الجارة بالفكرة، وذهبتْ إلى بيتي، ولكنها بعد دقائق عدّة رجعت وقالت بأن زوجتي رفضت الحديث معي، وإن لم أخرج من الحي كله، سوف تتصل مرة أُخرى بالشرطة وتقول بأنّني أهدّدها مع أمّها بالقتل، وأنّني أنتظر خروجها من باب البيت كي أنفّذ الجريمة. خرجتُ من الحي، وذهبتُ إلى مركز شرطة العنف الأُسَري، شرحتُ لهم وضعي بالتفصيل، وطلبتُ منهم أن يأتوا معي كي تفتح زوجتي لي الباب وأعود إلى بيتي.

قال لي مدير المركز الذي كان رفيعاً وطويلاً، وكان برتبة مقدَّم: ما تطلبه ليس من صلاحيتنا، لأننا إذا أدخلناك إلى البيت بالقوة، ربما تُنفّذ تهديدك لها بالقتل، فنتحمّل نحن المسؤوليّة.

قلت: ما الحل..؟ لقد بقيتُ في الشارع؟

وضع مرفقَيه على الطاولة وقال: لا توجد سلطة على وجه الأرض تمنعك من الدخول إلى بيتك، لكنك إذا دخلت البيت،

وافتعلَتْ زوجتك شجاراً معك، ثم اتصلَتْ بنا، سنضطرّ أن نأتي. هذا هو الواقع، لا نستطيع أن نفعل شيئاً، لأن اختصاصنا يكمن فقط في الاستجابة لأي اتصال أو شكوى نتلقّاها من امرأة بحق رجل، مهما كان منصب هذا الرجل، وسبق لنا أن أوقفنا أزواجاً وهم يشغلون مناصب مهمّة عندما تقدّمت زوجاتهم بالشكوى عليهم، مثل: رئيس نقابة المحامين، وضابط شرطة برتبة عقيد، وعضو في البرلمان، ووزير سابق، وأستاذ جامعي، والقائمة تطول.. عندما لا تريد الزوجة أن يدخل زوجها إلى البيت، فلا أحد يستطيع أن يمنعها، لأنَّها ستوكل محامياً وسيجد لها المبرّرات القانونيّة التي يتوقَّف الزوج بموجبها، وأسهل تلك المبرّرات، أنّه يُهدّدها بالقتل. فيخرج بكفالة، ولم يعد قادراً أن يمنعها، أو يعترض طريقها أينما ذهبتْ، وحيثما توجَّهتْ، لأن شرطة العنف الأُسَري تكون له بالمرصاد بمجرَّد اتِّصال المرأة بها من هاتفها الخلوي، وهي تُرجّح كفّة المرأة على كفّته. برأيي الشخصي، اذهب إلى فندق، أو استأجر لك بيتاً، وحاول أن تتفاهم مع زوجتك بهدوء ورويّة دون أن تزعجها، نفّذ لها كل ما تريد، هي الآن سيّدة الموقف وتستطيع أن تفعل بك ما تشاء، قانون العنف الأُسَري بنسبة مئة بالمئة معها ويؤازرها، أردتُ أن أكون صريحاً معك حتى لا تتهوَّر بما يمكن أن يلحق بك أفدح الضرر.

في تلك اللحظات، طُرِق الباب ودخل حاجب الضابط وقال: سيّدي، إمام وخطيب مسجد الحي يُريد مقابلتك.

قال: دعه يدخل.

فدخل رجلٌ يرتدي جبة وعمامة، ألقى السلام وقال على الفور: يا حضرة الضابط، منذ ستّة أشهر وابني لا يستطيع أن يرى أولاده، لأنّ أمّه المطلَّقة تمنعهم من رؤيته، وهي تستقوي بكم في قطع صلة الرَّحم هذه، وما كنتُ سأحضر إليك لولا أن ابني قال بأنَّها إذا استمرَّت في ذلك سوف يقتلها، أوجد لنا حَلاً يا حضرة الضابط، هو لا يُريد سوى أن يرى أولاده ولو في الأسبوع ساعتَين. أساس أمننا الأسري قائم على صلة الرحم وبرّ الوالدَين، ومؤازرتكم للنساء في استئصال صلة الرحم، وتحريض الأبناء على عقوق الآباء يجعلكم شركاء لهن في زحزحة هذا الأمن الأُسَري، يقول الله: {**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**}[2]. وقد حذَّر الله {**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**}[3]. وأردف يقول بلهجةٍ شديدة: يقول رسول الله صلى الله عليه

---

[2] سورة محمد، الآيتان 22 ، 23

[3] سورة البقرة، الآية 27

وسلم: "الرَّحمُ معلَّقةٌ بالعرش تقولُ: مَن وصلني وصله اللهُ، ومَن قطعني قطعه اللهُ"[4]. "ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّلَ اللَّه لصاحبه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة من البغيِ، وقطيعةِ الرَّحم"[5]. "مَن سرَّه أن يُبسَط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثرِه، فليَصِل رَحِمَه"[6]. "قال الله: أنا الرَّحمن، وهي الرَّحِم، شققتُ لها اسمًا من اسمي، مَن وصلها وصلتُه، ومن قطعها بتتُّه"[7]. "ليس الواصِلُ بالمُكافِئ، ولكن الواصل الَّذي إذا قُطِعتْ رَحِمُه وصلَها"[8]. "ألا أُخبِرُكم بأفضل من درجة الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟"، قالوا: بلى، قال: "صلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فساد ذاتِ البَيْنِ هي الحالقةُ"[9]. "الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنةِ، فإن شئتَ فأضِع ذلك البابَ أو احفَظْه"[10]. "رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد"[11]. قال ذلك وخرج على الفور.

بعد ثوانٍ من خروجه، نظر إليَّ وكأنّه أدرك للتو بأنّني كنتُ موجوداً، فأشار لي بأن المقابلة انتهت وقال: هذا جهاز جديد

---

[4] رواه مسلم عن عائشة
[5] رواه الترمذي عن أبي بكرة
[6] رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة
[7] رواه أبو داود عن عبد الله بن عوف
[8] رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو
[9] رواه الترمذي عن أبي الدرداء
[10] رواه الترمذي عن أبي الدرداء
[11] رواه ابن حبّان عن عبد الله بن عمرو

في البلاد، بصراحة نحن ندور في فَلَكه ولا نعلم ما الذي يحدث، غير أنّنا ننفّذ الأوامر التي تصلنا من جهاتٍ عُليا.

***

استجبتُ لتوجيهه مكرهاً، وأقمتُ في فندقٍ لمدّة شهر، وبعدها، اتّصلتُ بزوجتي هاتفياً لعلّها قد هدأت، وطلبتُ منها أن تأتي بأولادي إلى الحديقة كي أراهم لأنّني اشتقتُ لهم كثيراً. فقالت: انس أولادك، وإذا عاودتَ الاتّصال بي، سوف أتقدَّم بشكوى إلى شرطة العنف الأُسَري بأنك هددتني في الهاتف.

مكثتُ شهراً آخر في الفندق وذهبتُ مرة أُخرى إلى مركز الشرطة، وقلت لمدير المركز بأنّني نفّذتُ ما طلبه منّي، ولكنني مشتاق لأولادي، ولم أرهم منذ شهرَين.

قال: كما صارحتكَ في المرة الأولى وجنّبتك المشاكل، سأصارحك هذه المرة أيضاً بأن عليك أن تنسى أولادك، ولا تحاول أن تراهم، إلّا إذا كان ذلك بموافقة زوجتك، حتى لو تقدَّمتَ بطلب رؤية، سواء طلقتها، أو لم تطلّقها، فإنّها ستمنعهم من المجيء، وتقول بأنّهم هم الذين لا يريدونك، ولا نستطيع أن نأتي بهم بالقوة أو بالعنف حتى يأتوا ويروك. وإذا طلبنا منهم أن يلتقوا بك، سوف يرفضون ذلك، لا لأنَّهم لا يريدون، بل خوفاً من التهديد الذي تلقّوه من أمّهم في حال تواصلوا معك حتى ولو بكلمةٍ واحدة في الهاتف، ولا أريد لك

أن تظلمهم، فلا يوجد طفلٌ في العالَم لا يحنّ لأبيه، وشوقهم إليك لا يقل عن شوقك لهم، ولكنَّ الرعب من تهديدات أمّهم يمنعهم عنك، وأحياناً تهدّدهم الأم أنّها في حال سماعها بأنهم التقوا بأبيهم خلسةً، سوف تحرقهم وتحرق نفسها معهم، وتضع يدها على المصحف وتقسم لهم على ذلك، فيصدّقوا ويخافوا. أمّا إذا عاندتَ كثيراً، فهناك حالات مروعة في ملفّاتنا حصلت لبعض الآباء من خلال بعض الأبناء بتحريضٍ من الأمّهات. أذكر أنّني ذات يومٍ انفردتُ بفتى كان في السادسة عشرة من عمره، فقال لي بأنّ أمّه المنفصلة عن أبيه قالت له بأن أباه كان يركل بطنها بقدمه عندما كانت حاملاً به، وكان يُريد أن يقتله وهو في بطن أمّه، ولذلك كان ذاك الفتى يحقد على أبيه، ورأيتُ الشرر في عينَيه وهو يتحدَّث، وكان على استعدادٍ أن يرتكب أيّ حماقة بحقّ أبيه.

عندما تنطوي المرأة على شر وخاصة في ظل قانون العنف الأُسَري، تتحوَّل إلى كائنٍ هائج، لا أحد يقدر أن يكبح جماحها. لم تكن تلك المرأة تسيء للأب في نظر الابن فقط، بل كانت تُسيء للابن أيضاً في نظر الأب، لأنَّها كانت تجعله متطفّلاً على أبيه، ويعيش في ازدواجيّة، فمن ناحية كانت تدفعه كي يقطع صلته بأبيه ويرفض أن يراه، بل وكانت تحظّر عليه أن ينطق على لسانه كلمة أبي، ومن جهةٍ أُخرى عندما كان الأب يتأخّر في

دفع مصروف ابنه، كانت تأخذه إلى القضاء فيقول كما أوصته أمّه: أنا ابن فلان، وأبي لم يرسل لي نفقتي الشهر الفائت، هو أبي، وأنا بحاجةٍ إليه كي ينفق عليّ. ويقدّم للقاضي الوثائق الرسميّة التي تثبت بأنه ابن فلانٍ.

فيقول له القاضي: لا بأس، عد إلى بيتك، وسوف تتّصل الشرطة بأبيك حتى ينفق عليك بناءً على طلبك. ومبلغ النفقة كان محدوداً، لأنّه يُقاس بموجب راتب الأب، ولو أن هذا الفتى ذهب إلى أبيه بشكلٍ طبيعي رغم أنّه يعيش مع أمّه، لأنفق عليه ضعف ذاك المبلغ، بل كلّما كان يحتاج إلى مبلغ في أيّ وقت، كان سيطلب منه، وكان الأب سيؤمّن له احتياجه حتى لو اقترض من أحد معارفه، وكان سيوصي صاحب الدكّان القريب من ابنه أن يعطي له ما يحتاج، وكل شهر سيذهب ويسدّد له المبلغ، وحتى في حال الأمراض، كان سيهرع ويأخذ ابنه إلى الطبيب، وكذلك في الأعياد وبعض المناسبات يشتري له ما يحتاج إليه.

لقد حرمت تلك المرأة ذاك الابن من كل تلك المزايا التي كان سيتمتَّع بها، وكذلك وضَعَته في موقفٍ محرجٍ مع أبيه، وأرغمت عليه أن يبدو متطفّلاً كي ترضي نزعتها العدوانيّة وتنتقم بحقدٍ أعمى من الأب بشكلٍ مباشَر، وكذلك من الابن بشكلٍ غير مباشر وتحرمهما من حميمية وجماليّة العلاقة بين

الأب وابنه، وتقطع صلة الرحم بينهما مستقوية بشرطة العنف الأسري، النفقة في المحاكم هي محاولة لإفساد العلاقة الطبيعيّة بين الأب وأبنائه، لأنّها قد تسرّب إلى الابن شعوراً بأن أباه ينفق عليه مُرغَماً وبالقوَّة، وليس بدافع أبوَّته، وبالتالي قد تكون في بعض الظروف بمثابة تحريضٍ للابن كي يتطاوَل على أبيه في حال تعرّض الأب لظرفٍ ماليٍّ طارئ، أو صعب، ومن المفترض هنا في العلاقة الطبيعيّة أن يترك الابن كل ما بيدَيه ويقف إلى جانب والده في محنته حتى لو اضطرَّ أن يقسّم وقته بين الدراسة وإيجاد عملٍ ريثما يمضي ذاك الظرف، ليس بالضرورة أن كل ما يأتينا من الغرب يكون سليماً، بل منها ما يكون فاسداً لأن هذه القوانين الوضعيّة في النهاية هي اجتهادات بشريّة قابلة للصواب، وقابلة للخطأ، وأحياناً بعد فترةٍ من تطبيقها، يتم إجراء تعديلات كثيرة عليها، أو حتى إلغاءها لأنّها تلحق الضرر أكثر مما تنفع. ثم صوَّب نظراته إليَّ وقال: تعلَّمتُ في عملي هذا يا طاهر بأن الإنسان لا يستطيع أن يحب ويكره وهو لا يملك غير قلبٍ واحد، فإمّا أن يُحبّ به، وإمّا أن يكره به، ومن خلال عشرات الحالات التي جاءتني تبيَّن معي بأن المرأة التي تمتلك كل ذاك الكره الشديد تّجاه زوجها، أو طليقها، لا يمكن لها أن تحب أحداً، مهما كان قريباً منها، سواء الابن، أو الأب، أو الأخ، أو الأقرباء، أو المعارف، بل لا

تحب حتى نفسها، لأنَّها أوَّل ما تلحق الأذى، فإنَّها تلحقه بنفسها، فتحوّل نفسها إلى امرأة مطلّقة، وتتردّد إلى مخافر الشرطة، والمحاكم، وتدّعي الافتراءات، وتبتزّ الرجل، وتقطع صلة الرحم، وتبثّ خصومةً بين أهل زوجها وأهلها، أمّا إذا كان الإنسان يحبّ، فإنّه في أسوأ درجات الخلاف، يمكن أن يحجم عن حب شخصٍ معيَّنٍ، ولكنّه لا يكرهه، لأن القلب الذي يحبّ حبّاً حقيقيّاً، لن يكون بمقدوره في كل الأحوال أن يحقد، أو يكره، ولذلك أرى وأسمع عن حالات انفصالٍ بين زوجَين بهدوءٍ تامّ عند نشوب خلافاتٍ حادَّة بينهما، وتبقى المرأة ترسّخ في ابنها الذي يعيش في حضانتها حبّ الأب وتتحدّث له عن خصاله الحميدة، وتخفي سلبيّاته، ونظير ذلك فإنّه عندما يكون مع أبيه، فإنّه يثني له على خصال والدته، لأنّهما يعلمان بأن الابن إذا تعزّز لديه كره أحد الأبوَين، لا يستطيع أن يحبّ الآخَر حبّاً طبيعيّاً، مثله مثل الذي لا يستطيع أن يمشي على قدمٍ واحدة بسويَّةٍ، ولذلك يحصل أحياناً أن يتسبّب هذا الابن إلى عودة الحياة الزوجيّة بين أبوَيه بعد الانفصال، لأنّه عندما يكون مع أمّه، يطلب منها ذلك، وعندما يكون مع أبيه، يطلب منه ذلك. نعم هناك حالات لا أملك إلّا أن أقف أمامها باحترام وأتعلَّم منها، كما أن هناك حالات أقف أمامها بقرف لأنَّها مشمئزّة إلى أقصى حدود الاشمئزاز.

نجاة ابن أخت الضابط

صمتَ الضابط لوهلةٍ ثم قال: ذات يومٍ حصلت مشادة بين ابن أختي وبين زوجته، وعندما أخبرني بذلك قلت له: يا بن أختي الغالي، عليكَ أن تلبّي لها كل ما تُريد دون أن تسأل عن شيء، وإذا تقدّمتْ بشكوى عليك، سوف تكون الخطوة الأولى نحو تكبدك الخسارة تلو الخسارة مادياً ومعنوياً، وتكون الخطوة الأولى نحو تفتيت عائلتك، وتحويل أولادك إلى أعداءٍ لك، لأنَّها بعد تلك الخطوة، سوف تلجأ إلى محامٍ، وعندها لن تفلت منه ومنها. وبصراحة عندها لن يكون بوسعي أن أردعها عنك قِيد أُنمُلة. وهو بحدود علمي الشخص الوحيد الذي نجا بسلامٍ من زوجته دون خسائر مادّية أو معنويّة.

قلت: كيف؟!

طقطق أصابع يدَيه وقال: بعد أيامٍ قليلة عاد إلى زيارتي في البيت وقال لي: يقول جيفارا: (حتى خصومك اخترهم بدقّة، وإيّاك أن تمنح التافه شرف أن يكون ندّاً لك). وخلال تلك الأيّام كان يستجيب لكل طلباتها، حتى باع البيت من غير أن يُخبرها على أن يسلّمه للمشتري بعد شهر، واستغل زيارتها إلى بيت أهلها، وأتى بالمشتري كي يرى البيت، ثم نظَّمَ عقد البيع القانوني في مكتب أحد المحامين وصدَّقه في المحكمة. بعد

ذلك حجز تذاكر السفر له ولأولاده إلى خارج البلاد، وقال لزوجته بأنّه سوف يأخذ الأولاد لزيارة أمّه في القرية، وكانت هي على خلافٍ مع أمّه ولم تكن تذهب لزيارتها، فأخذ الأولاد وسافر بهم. وصُدمت زوجته عندما علمت بذلك من خلال رسالة أرسلها لها في اليوم التالي من خارج البلاد، وعندما جاء المشتري في موعده كي يقيم في البيت، فوجئ بها، فأتى بالشرطة وأخرجوها لأن مالك البيت قد باعه بموجب عقد بيع مصدّق من القضاء. ثم أرسل ابن أختي لها قرار الطلاق، وشطب اسمها من سجّله المدني، ومن دفتر عائلته، ولبث هناك عشر سنوات يعمل حتى تحقّق بأنّها تزوَّجَت، فعاد برفقة أولاده وقد كبروا.

وأضاف يقول لي وقد بدا لي بأن قريحته انفتحت للكلام: لا تقلّل من حجم الخطر الكبير الذي أصبحتَ فيه يا طاهر، عليكَ أن تصبر وتحتمل، هي مرحلة وسوف تمضي، وكما يُقال: (يوماً بيوم، إن الأيام دُوَل). حتى إذا تهجّمتْ عليك في الشارع، دعها وابتعد عنها ما أمكنك، أعطها كل ما تريد كي تتّقي شرّها.

قلت: هل يمكن أن يحصل هذا؟!

قال: نعم يحصل، ويحصل أكثر من هذا بما لا يخطر لك على بال، حتى أنا الآن وفي موقعي المسؤول الذي تراني فيه، أخاف من المرأة إذا حقّقتُ معها بشيء من الضغط كي أعرف الحقيقة، لأنّها بكل بساطة يمكن أن تتهجَّم عليّ وترفع صوتها،

وتتّهمني بأنّني تحرّشتُ بِها، أو حاولتُ أن أبتزّها، وما إلى ذلك، ثم توكل محامياً، فأضيعُ في خبر كان.

قلت: إلى هذا الحدّ..؟!

قال: نعم: حصل ذلك أكثر من مرة مع بعض الشرطة، بل ومع بعض القضاة، وتعرَّضوا للتوقيف، ومنهم مَن فُصِلَ مِن وظيفته، وصاروا يستجدون المرأة كي تسقط دعاواها عنهم، لأن كل دعوى تتفرّع عنها دعاوى أخرى. فبالإضافة إلى المساءلة القانونية، تعرَّضوا لتهديدات واعتداءاتٍ عليهم من أهالي النساء بسبب النَيل من الشَّرَف. ولذلك نرى البعض لا يكتفي بقتل المرأة، لأنّه يرى بأن ذلك لا يشفي غليله منها من كثرة الأوجاع التي راكَمَتها في قلبه، بل يحرقها.

قلت: سمعتُ بحالاتٍ كهذه.

قال: حالات الحرق والتشويه المريع هي كثيرة جدّاً، وما ننشره للناس هو غَيضٌ مِن فَيض. تصوَّر أحياناً خلال أسبوعٍ واحد تتعرَّض خمسون امرأة للحرق. أحياناً نكون في مكان جريمةٍ، فنتلقّى اتّصالاً بوقوع جريمةٍ أُخرى، ثم أُخرى، ثم أُخرى، أحياناً في يومٍ واحدٍ أتلقّى اتّصالات عن وقوع نحو عشر جرائم في أحياءٍ مُختلفة. ذاتَ يومٍ قلتُ لقاتلٍ قام بقتل زوجته، ثم أحرقها، ووقف ينظر إليها وهي تحترق: كيف احتملتَ ذاك المنظر؟

قال: هذه المرأة أحرقت قلبي ألف مرّة بدلاً عن مرّة واحدة، لذلك كانت كل نظرة إليها وهي تحترق، تُطفئ من قلبي ناراً كانت قد اشعلتها فيه، لم تترك لي خياراً آخَر سوى أن أطفئ نار قلبي بالنار، وكنتم أنتم وقود النار التي كانت تحرقني بها، وكنتم أنتم وقود النار التي أحرقتها بها.

طبيب الأسنان وزوجته الثانية

ضغط الضابط على زرٍّ وطلب من حاجبه أن يأتي بكأسَين من الشاي، فوجئتُ بذلك، ولكنّه قال وهو ينظر إليّ: بصراحة يا طاهر، لا أخفيكَ بأنّني ارتحتُ لك كثيراً، وأشعر براحةٍ غريبة وأنتَ هُنا وأنا أتحدَّث معك.. هل ينتابك أنتَ أيضاً هذا الشعور؟

قلت: نعم، أشعر بأنّني جالسٌ مع صديق لي، وليس مع ضابط شرطة.

أتى الحاجب بالشاي، وعند خروجه، قال الضابط: لذلك أنا حريصٌ عليك، وأحاول ما أمكنني أن أجنَّبك من التهوّر الذي سوف يقضي على مستقبلك. نحن نعيش في أكثر بقاع العالَم خطورةً، كل واحدٍ منا يمشي في حقلٍ من الألغام.

ثم أشار لي بيده أن أحتسي الشاي، ورفع هو الآخَر الكأس إلى فمه، ورشف رشفةً طويلة، ثم قال وهو يعيد الكأس إلى صحنه: حالة أُخرى واجهتني في عملي هذا مع طبيب أسنانٍ، تعرَّفتُ عليه عندما كان يعالج أسناني، وفيما بعد تحوَّل إلى صديقٍ لي، كان الطبيب متزوّجاً، ونتيجة خلافاتٍ، طلَّق زوجته بعد شكاوى عديدة كانت تقيمها عليه، وذاتَ يوم بعد طلاقه من زوجته بنحو أربع سنواتٍ، ذهبتُ إلى عيادته، ليس

من أجل أسناني، بل من أجل أسنان ابني الذي صحبته معي، وكان يُعاني من آلامٍ في أسنانه. وبعد أن عالج أسنان ابني، ووصف له فرشاةً طبّية، مع معجونٍ طبيٍّ، جلسنا نحتسي القهوة، فقال لي بأنّه مقبلٌ على الزواج من ممرّضته، وهي امرأة مطلَّقة ولديها طفل في السادسة من عمره. يومها قلت له عبارةً خرجت بشكلٍ تلقائي من فمي: إذا أعدتَ زوجتك، سيكون أفضل لك من الزواج من الممرّضة.

نظر إليَّ مشدوهاً وقال: لماذا يا صديقي؟

قلت: لأنّها مثل طليقتك، مطلَّقة محاكم، والذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه.

قال: يستحيل أن أتخيَّل مُجرَّد تخيّل العودة إلى مطلَّقتي بعد كل الذي فعلته بي.

قلت: وما تقوله عن طليقتك، يقوله طليق ممرّضتك أيضاً عن طليقته، فهو لا يتخيَّل مجرّد تخيّل بأن يُعيدها إلى ذمّته بعد كل الذي فعلته به في المحاكم.

سحب الضابط سيجارة من علبة دخانه، أشعلها، ثم رشف رشفةً أُخرى من الشاي وقال: لكن صديقي الطبيب عمل بما رآه مناسباً وتزوَّج من ممرّضته.. وبعد قرابة سنة ونصف على زواجه منها، زارني ذات يومٍ في هذا المكتب، فوجئتُ بزيارته،

وكان وجهه شاحباً، فقال: جئتُ كي أستشيركَ في أمرٍ شديد الخصوصيّة وشديد الاحراج، لعلَّكَ تجد لي مخرجاً.

قلتُ له: تفضَّل يا صديقي.

قال: لا أعرف ما الذي حصل لزوجتي، تبدو عصبيّة، وصارت تستفزّني في كل صغيرةٍ وكبيرة، وتفاقمت الخلافات بيننا أكثر عندما أنجبت لي ابنة.

قلت: مبروك يا صديقي، تتربّى بعزّك.

قال: الأمر ليس كما تتصوَّر يا صديقي، إنّه أكبر من ذلك بكثير، منذ عدَّة أيّامٍ عدتُ من العيادة إلى البيت، وفوجئتُ بأنّ مفتاحي لا يفتح الباب، وبعد قليلٍ تناهى صوتها من خلف الباب: لا تتعب نفسك يا دكتور.. الباب لن ينفتح، لأنّني غيَّرتُ القفل.

وبعد نحو نصف ساعة من وقوفي أمام الباب وهي لا تفتح، رأيتُ بعض جيراني يخرجون من بيوتهم وينظرون إليّ، ويسألونني إن كنتُ بحاجةٍ إلى شيء، فانحرجتُ وذهبتُ إلى فندقٍ كي أنام فيه ريثما تهدأ زوجتي، لأنّني كنتُ متعباً جدّاً من ضغط العمل.

وفي اليوم التالي وبينما كنتُ في العيادة، جاءت مستنفرة، فأغلقتُ الباب وطلبتُ من الممرّضة الجديدة ألّا تُدخل أحداً من المرضى حتى آذن لها بذلك.

لبثت زوجتي واقفة وقالت: ما جئتُ إلى هنا كي أجلس، أو أنّني اشتقتُ لك، ثم طلبت منّي أن أترك البيت والسيارة لها، وأودع لها مبلغاً من المال في المصرف كي تعيش به، وإذا رفضتُ ذلك، ستأخذ ابنها إلى شرطة العنف الأُسَري وتدَّعي بأنّني تحرّشتُ به، وقالت بأن الطفل سوف يقول لهم بأنّك قمتَ بذلك مرات عديدة وكان يتهرَّب منك، وفي النهاية، أبلَغَ أمّه عمّا يبدر منك بين فترة وأخرى عندما تختلي به.

حينذاك أحسستُ برغبةٍ جامحةٍ كي أحلّق يدَي حول رقبتها ولا أتركها إلّا وقد تحوَّلت بين يدَي إلى جثَّةٍ هامدة، لكنّني تمالكتُ نفسي وقلت لها: عودي إلى البيت، وسوف أفكّر في الأمر.

قالت وهي تستدير خارجةً: لكن لا تتأخّر، أمهلك أسبوعاً واحداً فقط، وبعده سوف أنفّذ ما أخبرتك به، وخلال هذا الأسبوع إيّاكَ أن تقترب من البيت، لأنّني لو رأيتك، سوف أتّصل بشرطة العنف الأُسَري، وسوف تندم على اليوم الذي أنجبتك فيه أمّك.

وقبل أن يسألني عمّا يفعل، سارعتُ في القول: نفّذ لها كل ما طَلَبته منك بلا أيّ تردّد.

هبَّ واقِفاً على قدمَيه وقال: ماذا تقول يا صديقي؟! هل جُننت؟

وقفتُ على قدَمي وقلت وأنا أحدّق في جهامة وجهه: بل عقلت، لأن الواقع مجنون، وتنفيذ طلبها هو أقل ما يمكن أن تُمنى به من خسائر مادية ومعنوية. فخرج تاركاً كأس الشاي في منتصفها، وبعد ذلك بأسبوعٍ بالضبط، تلقيتُ بلاغاً عن انتحار امرأةٍ من خلال قذف نفسها من الطابق الرابع إلى الأرض، وذهبنا إلى الموقع، فوجئتُ بأنَّها زوجة صديقي الطبيب، وكان موجوداً هناك، وبعد تشريح الطبّ الشرعي تبيَّن بأن ذلك حدث في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولم تكن ثمّة أدلّة تثبت عن تعرضها لأي اعتداء، وعندما استدعيتُ زوجها للتحقيق معه، رأيتُ انفراجاً على ملامحه، عكس ما كان عليه عندما جاءني في المرّة السابقة، فقال لي بأنّه فوجئ بما وقع عندما استفاق صباحاً على خبطات عناصر الشرطة على بابه. ولم تكن لديَّ أدلّة كي أوقفه من خلالها، وكذلك لم يكن لدينا ما يُشير إلى خلافاتٍ بينهما أدَّت إلى تقديم شكوى عليه، وكان يمكن أن يتوقَّف في حال وجود شكاوى، أو حتى شكوى واحدة من زوجته تشير إلى وجود ولو خلافٍ بسيطٍ بينهما، فكل التحرّيات التي أجريناها، بيّنَت بأن العلاقة الزوجية بينهما كانت على ما يرام. فعاد الطبيب إلى عمله كأن شيئاً لم يكن، وأعاد الطفل إلى أبيه الذي كان محروماً من رؤيته طوال خمس سنوات.

عنف اكتئابي

قلتُ للضابط: هل من الضروري أن تُحيل كل شكوى إلى القضاء؟

قال: لا، ليس من الضروري خاصّة إذا لم تكن المرأة قد أوكلت محامياً، فألفلف الشكوى هنا، وأجعل الزوج يكتب تعهّداً بعدم تكرار الأذى الذي تدَّعي الزوجة بأنّه سبّبه لها.

ثم ابتسم وقال: ذاتَ يومٍ جاءتني امرأة وقالت بأنّ زوجها يتقصَّد أن يُعاقبها جنسيّاً.

فقلتُ: كيف يُعاقبكِ جنسيّاً؟

قالَت: زوجي يعمل بائعاً متجوّلاً على عربة دفش يبيع عليها الخضار والفاكهة في الأحياء الشعبيّة، يخرج من البيت صباحاً، ويعود بعد غروب الشمس، ويكون متعباً، فيتناول الطعام على عجل، وينام، ويبقى نائماً حتى الصباح، وكلّما أيقظه في الليل كي يعطيني حقّي من العشرة الزوجيّة، يتقلب في الفراش ويقول بأنّه متعب ويطلب منّي أن أتركه نائماً. وأبقى يقظة أنظر إليه لأنّني أكون بحاجةٍ ماسّة إلى العشرة، وأكون راغبة بها، ومن كثرة تكراره لذلك، تسبَّب لي باكتئاب. أنا جئتُ إليكم أشكوه حتى يمنحني حقّي، لأنّه إذا استمرّ بذلك، فسوف يقتلني ببطء، وأعلمكَ يا حضرة الضابط بأنّني الآن أعاني من اضطراباتٍ في

المعدة، وآلامٍ في الظهر، وقد راجعتُ الطبيب، فقال لي: لا تُعانين من أيّ مرض، ولكن تشعرين بهذه الأعراض بسبب الاكتئاب، وفي حال علاج أسباب هذا الاكتئاب، ستتعافين تماماً، وتزول عنكِ تلك الأعراض. أخبرتُ زوجي بذلك، ولكنه لم يأبه، ولذلك جئتُ شاكيةً عليه إنقاذاً لحياتي.

فاتَّصلتُ بهاتف زوجها الخلوي، وطلبتُ منه أن يحضر إلى المركز، وانتظرناه زهاء ساعة من الوقت حتى جاء، وعندما رأى زوجته جالسة في مكتبي، رفع حاجبَيه مستغرباً وقال: خير إن شاء الله يا حضرة الضابط؟

فطلبتُ منه أن يجلس، وتحدَّثتُ معه بهدوءٍ عن مضمون شكوى زوجته، وبعد أن سمع كلامي، قال: لم أحرمها من هذا الحق، وأنا أعطّل يوم الجمعة من كل أسبوع، وفي ذاك اليوم تحصل بيننا العشرة الزوجيّة.

قالت المرأة: لكن ليس كل جمعة، لأنّني أحياناً أكون في دورتي الشهريّة في ذاك اليوم، وكذلك أحياناً تُمرّر بعض الجُمَع دون عشرة.

قال: نعم، لكن فقط في بعض الأحوال الطارئة عندما نقوم ببعض الزيارات العائلية، أو نؤدّي بعض الواجبات الاجتماعية، وأكون متعباً.

فقلتُ له: لن أحيل شكواها إلى القضاء مراعاةً لظروفك، وإلّا، سوف يسجنك القاضي، ولن تخرج إلّا بكفالة، وبعد فترةٍ سيطلبونك لجلسة النطق بالحكم. سأختصر كل ذلك عليك، واقترح عليكَ حلّاً وسطاً وهو أن توفّق بين طبيعة عملك، وتلبية مطلب زوجتك.

فنظر إلى زوجته وقال: ماذا تُريدين؟

قالت: أريد العشرة الزوجيّة كل يوم، ولو كان ذلك في وقتٍ متأخَر من الليل ريثما ترتاح من عناء العمل.

قال بحسمٍ: مستحيل.

قالت: لماذا مستحيل؟ وهل سأحمّلك أثقالاً على ظهرك وأجعلك تصعد بها إلى قمّة جبل؟

فلبث صامتاً وعندها قلت متّجهاً بكلامي لزوجته: خفّفي عليه، واضفتُ قائلاً لزوجها: يومٌ لراحتك، ويومٌ لراحة زوجتك.

قال: هذا كثير.. يومان لي، ويومٌ لها.

قالت: أنا مع ما قاله الضابط، ثم نظرتْ إليه وأضافت تقول: لا تنس بأن أيّام الدورة الشهريّة أيضاً سوف تبقى لراحتك، ولن أقرب منك خلالها.

فقال: موافق. ثم كتب تعهّداً على ذلك، وخرجا. وبعد عدَّة أشهر عادت تلك المرأة إليّ وتقدَّمت بشكوى على زوجها مدَّعيةً فيها بأنّه اغتصبها جنسيّاً. فعدتُ وهاتفتُ زوجها الذي لم يتأخَّر بالمجيء، وعندما رأى زوجته جالسة مثل المرة الماضية في مكتبي، قال: خير إن شاء الله هذه المرة أيضاً يا حضرة الضابط..؟ لم أخل حتى هذا اليوم بتعهّدي.

فقالت وهي تحدجه بنظراتها: ليلة البارحة كنتُ متعبة، ولم أكن راغبة في العشرة، وقد أخبرتكَ بذلك، لكنك أصررتَ على غريزتك واغتصبتني رغم كل محاولات المقاومة التي أبديتها.

قال: بصراحة ليس لأنّها كانت ليلة الوفاء بالوعد فقط، بل شعرتُ بإثارةٍ غريبة، ولم أعد قادراً على التمسّك بنفسي، وبعد أن أفرغتُ تلك الإثارة، شعرتُ براحةٍ هائلة.

قالت: ولكنّني شعرتُ بتعاسة هائلة، وما يزال كل عضوٍ فيّ يؤلمني، لأنك كنتَ كالوحش الذي وقع على فريسة.

فنظرتُ إليه وقلت: أنتَ مارستَ العنف على زوجتك، ولكن هذه المرَّة أيضاً لن أحيلك إلى القضاء. ثم كتب تعهّداً بعدم التعرّض الجنسي لزوجته إلّا عَن رضى وقبول منها.

شغلها الشاغل

أشعل الضابط سيجارةً أُخرى، ثم أشار لي بيده والسيجارة بين إصبعَيه وقال: أنتَ الآن في ذروة الخطر، ربما أخطر ما يمكن أن تواجهه في حياتك يا طاهر، المرأة المنتقمة، تفعل ما لا يتخيّله المرء، لأنها تكون منفلتة تماماً على الرجل وتجعل منه شغلها الشاغل. ذات يوم بعد أن أخذتْ إحدى المطلّقات وكان اسمها (مروة) كل شيءٍ من زوجها الذي كان اسمه (سعدون)، جَعَلته شغلها الشاغل، فكانت تتعقَّبه وتتقصَّد الذهاب إلى كل الأماكن التي يتردَّد إليها، وتشوّه سمعته، تذهب إلى مكان عمله وتتحدَّث لزملائه عنه بسوء، وكانت تترقّبه كي يخرج من البيت وتهجم عليه في الشارع، تهينه، تضربه، والمسكين يهرب فتجري خلفه، ثم يأتي محاميها ويتقدَّم بشكوى تقول بأن مطلّق موكّلته تهجَّم عليها في الشارع واعتدى عليها بالضرب والشتائم، وفرّ هارباً، فنضطرّ أن نجلبه ونقدّمه للقضاء. (هذه المرأة لها قصّة أخرى، ذكّرني حتى أخبرك بها بعد أن أنتهي من هذه). فقلت: نعم.

قال: ذات مرَّة كان المسكين سعدون جالساً في إحدى المطاعم يتناول سندويشة فلافل، وعندما رأته مروة مصادفةً، دخلت المطعم وتحرَّشت به، ثم رفعت صوتها وشتمته على

مرأى من المتواجدين في المطعم، عندها يبدو بأن الكيل طفح بسعدون، فصدر منه صراخٌ غريب يشبه الانفجار بحسب ما أفاد الحضور، وهرع كذئبٍ إلى سكينٍ في المطعم، وأخذ يطعنها طعنة تلو أخرى حتى قضى عليها تماماً، ثم تنفَّس الصعداء تنفّساً غريباً يشبه أزيز ريح شديدة، وقال: الآن أزحتُ صخرةً عَن كاهلي قبل أن تخنقني هذه الموبوءة بثوانٍ. والغريب أن ذاك الرجل توارى عن أنظار المجتمعين داخل المطعم وهم ينظرون إليه، وحتى هذا اليوم لا أحد يعرف له مكاناً، وما يزال أهله بين فترةٍ وأُخرى يتقَّدمون بشكاوى عن فقدان ابنهم. سألتُ بنفسي بعض الذين كانوا متواجدين في المطعم، ومن ضمنهم صاحب المطعم؟ فأكَّدوا لي جميعاً بأن الرجل بعد أن ارتكب جريمته، لبث واقفاً ولم يتحرّك من المطعم، واختفى فجأة من أمام أنظارهم. وأنّه لو مدَّ خطوة واحدة إلى الخارج، لرأوه.

قلت: والسكّين؟

أطفأ عقب سيجارته في النفّاضة التي كانت ممتلئة بالأعقاب وقال: تركه في جسد المرأة التي كانت قد فارقت الحياة. الأمر الآخر أنّنا تابعنا الكاميرات التي كانت موجودة في الشارع، ورأينا سعدون وهو يدخل إلى المطعم، لكننا لم نره وهو يخرج منه. لكن الأمر الذي أثارنا أيضاً وهو الكميّة الكبيرة والغريبة من الدم

التي أخذت تسيل من جسد مروة حتى وهي ميتة، فقد خرج الدم من المطعم ومشى إلى نهاية الشارع الذي كان طوله يزيد عن خمسمائة قدم، ورأيتُ كيف أن الدم يمشي في الشارع، ثم أنّنا عندما أسعفناها بالسيّارة إلى المستشفى، امتلأت السيارة بالدم، وسارع المسعفون إلى إدخالها في البراد، لكن لبث الدم يسيل من البراد ويمشي في ردهات المستشفى، ثم اضطروا بعد يومين من ذلك إلى دفنها وهي تنزف. كانت تلك المرأة ظاهرة غريبة حيَّرتنا وحيَّرت الأطباء.

قلت: طلبتَ منّي أن أذكّرك بالقصة الأخرى لها.

قال: نعم، جيّد أنّك ذكَّرتني، مروة كانت متزوّجة سابقاً من رجلٍ آخَر اسمه (ميرزا)، وأوكلَت عليه محامياً على خلفية خلافاتٍ عائليّة وقعت بينهما، واستمرَّت الشكاوى عليه نحو سنتَين لم يستطع أن يرى بيته أو أولاده، وكان قد استأجر غرفةً صغيرة ينام فيها لوحده، وفي بداية كل شهر يرسل النفقة لطليقته ولأولاده، وبين حينٍ وآخَر تتَّصل به الشرطة وتدعوه للحضور إليها، فيرى محامي طليقته هناك، ويطلب منه أن يدفع مبلغاً إضافة إلى النفقة، لأخذ أحد أبنائه إلى الطبيب لأنّه مريض، فيقول: أعطوني ابني، سآخذه إلى الطبيب وأعيده لكم.

فيقول له المحامي: لا.. نحن سنأخذه.

فيبقى موقوفاً حتى يتَّصل بأحد معارفه ويقترض منه مبلغاً ويعطي للمحامي، فيُطلَق سراحه. وما كانت تفعله بزوجها الثاني، كانت تفعله بالأوَّل، وذات يومٍ تعرَّض ميرزا للمرض، ونُقل إلى المستشفى، وكانت طليقته مروة تتعقَّب أخباره في المستشفى، وعندما علمت بأنّه مات وهو في المستشفى، تقدَّمت من خلال محاميها بطلب، قالت فيه بأنّه ترك أولاده بلا نفقة، ولذلك تطلب أن يسمحوا لها ببيع كليتَيه كي تؤمّن بهما نفقات أولاده، وأن هناك مَن يشتري الكليتَين. وكتب المحامي في حاشية الطلب الذي قدَّمه للمحكمة، بأن ذلك سينقذ حياة رجلَين كل واحدٍ منهما يحتاج إلى كلية إنقاذا لحياته، وكذلك سيؤمّن النفقات لأولاده الذين يعيشون في حضانة أمّهم. ولكن القاضي لم يوافق على ذلك.

ثم أردف بعد صمتٍ لم يطل به: عندما أُدعى لعرس أحد الأقرباء، أو المعارف، أهنّئه وأقول في نفسي: أرجو ألّا أراك عندنا في المركز بعد عدّة أشهر. قال ذلك وما لبث أن وقف على قدمَيه من خلف الطاولة وقال: قلتُ لك ما لدي، ولكَ مطلق الحريّة في فعل ما تريد يا طاهر.

خرجتُ من المركز، أحسستُ بانهيارٍ وأن الدنيا كلها اسودَّت أمامي، فقدتُ الرغبة بالعمل، راح مني بيتي، وراحوا أولادي، تحطَّمتْ حياتي العائلية، ولم أعد أملك حتى أجرة الفندق كي

أقيم فيه. اقترضتُ مبلغاً من أحد أصدقائي، اشتريتُ مسدّساً وذهبتُ إلى البيت، لم أطرق الباب، بل دفعته بقوة ودخلت، أطلقتُ الرصاص على زوجتي وأمّها، وعدتُ إلى ذات الضابط، وضعتُ المسدس على طاولته وقلت: هذه المرة لم أعمل بمشورتك يا حضرة الضابط، بل بما رأيتني مندفعاً إليه.

الفصل الرابع

غسان

كان غسان رجلاً قصير القامة، ممتلئ الجسد، على وجهه جرح، وكان خفيف الحركة، وقد سُجنَ بسبب قتله لضابط من شرطة العنف الأُسَري، حصل ذلك عند نشوب خلافٍ بينه وبين زوجته، فقالت له: نحن الآن في عهد قانون العنف الأُسَري يا وَلَد، وإذا أزعجتني، سأتّصل بهم كي يوقفوكَ عند حدّك معي.

قال: تهدّدينني بهم؟!

قالت: نعم أهددك.

فصفعها وقال: لم يسبق لي أن مددتُ يدي عليكِ، ولكن الآن تستحقّين الصفعة على تماديكِ على زوجك يا قليلة الأدب والحياء.

فاتصلت زوجته بهم، ولكنَّها بعد رنَّتَين من الاتّصال، غيَّرت رأيها، وأقفلت الهاتف، ثم قالت: لا أريد أن أخرب بيتي يا غسان، أرجوك اعذرني، كنتُ منفعلة، وما كان لي أن أستفزّك وأتحداك، أرجوك سامحني، فقبَّلها وقال: سامحتك.

عند ذاك رنّ جرس هاتفها، ففتحت الخط وإذ بصوت رجل يقول: نحن من مركز شرطة العنف الأُسَري، اتصلتِ بِنا الآن وأغلقتِ الخط.

قالت: نعم، ولكن لا شيء، لقد تسرَّعتُ في الاتّصال.

قال: يحصل هذا عندما تريد الزوجة أن تشكو على زوجها الذي يمارس العنف اليدوي، أو اللفظي عليها، ولكنّه يزيد في تهديدها له عندما تتّصل بنا، أو يقوم هو بفصل الاتصال، ونحن هنا عادةً نتّصل بالرقم حتى لا نتخلّى عن المرأة المُعنَّفة.

قالت: حصل سوء فهم بيني وبين زوجي، وانتهى الأمر.

قال: ربما تقولين هذا وهو واقف بجانبكِ الآن ويهدّدك، أعطنا العنوان من فضلك حتى نأتي ونتحقّق بأنفسنا.

فأعطته العنوان، وبعد نحو نصف ساعةٍ حضرتْ دورية من شرطة المركز بإمرة ضابط قصير القامة، يضع على كتفَيه رتبة رائد، كان وجهه مثل مصباحٍ محترق ليس فيه ولا نقطة واحدة من نور الإنسان، وكان يتحدَّث بلكنةٍ شبيهة بنباح كلب، فقالت الزوجة بأنّها اتصلت بهم لأنّ زوجها صَفَعَها، ولكنها سامحته وغيَّرت رأيها.

فنظر الضابط إلى غسان بازدراء وقال: أف..أف.. صفعتها وهي تحت حماية جهاز شرطة العنف الأُسَري، لقد أحسستُ بشيءٍ من هذا القبيل من خلال نبرات صوتها عندما تحدَّثتُ

معها في الهاتف، ولذلك أصررتُ أن أحضر بنفسي برفقة الدوريّةٍ للتحقّق من الأمر.

وبعد قليلٍ استطاع أن يقنع الزوجة كي تشكو عليه، ولا تسكت عن تماديه عليها وتعنيفها، وإن سكتت، سوف يتمادى أكثر، أما إذا شَكَت، فسوف يأخذه إلى المركز، ويُقدّمه للقضاء كي ينال جزاءه، ولا يكرّر ذلك ثانيةً، فوافقتْ على الشكوى.

في تلك اللحظات، احتدَّت قسمات وجه غسان عندما جذبه شرطيٌّ من كتفه ليُخرجه من البيت، فانقضّ بغتةً على المسدَّس الذي كان معلَّقاً على جانب الضابط، سحبه بخفَّةٍ وأطلق عليه النار قائلاً: الآن اعتقِلوني على شيءٍ يستحق أن أُعتَقَل من بيتي لأجله.. ثم رمى المسدَّس عليه وقال: تفو عليك وعلى مسدَّسك الحقير. ولم تكن الطلقة التي تلقّاها الضابط قاتلة، فقد تم إسعافه إلى المستشفى، وبعد شهرٍ من العلاج خرج، ولكنه كان قد فقد ذاكرته. وعند ذاك شاع عنه بأنّه كان يطلب من المرأة الشاكية وهو يتفرَّد بها في مكتبه، أن تتحدَّث له عن تفاصيل العلاقة الجنسية بينها وبين زوجها، وكان يستمتع وينتشي وهو يستمع إليها ويطلب منها الاستمرار في الحديث، ثم يتيح لها أن تتحدّث بألفاظٍ بذيئة عن زوجها، فيقهقه زهواً ملء شدقَيه وهو يدعوها لقول المزيد.

قال طاهر: هذه هي المشكلة يا غسان، هذا القانون الوضعي جاء ضمن منظومة متكاملة مع بعضها بعضاً بعد دراسات مستفيضة، كي يتم تطبيقه ضمن منظومته، لكننا اجتزأناه من منظومته المتكاملة، وأقحمناه على منظومةٍ غريبةٍ عنه ومتنافرة منه، كأنك تضع لشخصٍ دماً من زمرةٍ مختلفة عن زمرته الدموية، عندها بدل أن يتعافى الجسد، فإنّه يُصاب بالتسمّم وتتفاقم عليه التداعيات حتى تقتله، فلا يمكن أن تنسجم الزمرتان في جسدٍ واحد بأيّ حالٍ من الأحوال، ولكننا نصرّ بعنادٍ شديدٍ على انسجام الجسد مع الزمرتَين المتناقضتَين رغماً عنه.

كل شيءٍ في منظومة هذا القانون يختلف عن منظومتنا الاجتماعية، لأنه كما قلت لك جاء نتيجة دراسة دقيقة وعميقة آخذة بعين الاعتبار كل المفرزات التي يمكن لها أن تنجم عنه عند تطبيقه، وبالتالي تم وضع حلولٍ ملائمة لتلك المفرزات، إضافةً إلى ذلك، فإنه مُنسجمٌ مع طبيعة مجتمعهم، وطبيعة أنظمتهم، مثل: تداول السلطة، تأمين فرص العمل للعاطلين عن العمل، إعطاء رواتب للعاطلين عن العمل سواء أكانوا من تلك البلاد أو من اللاجئين فيها، الضمان الصحّي، العادات والتقاليد الاجتماعية، الثقافة، محو الأمية، والمرأة هناك لا تخدش نفسها وتدّعي بأن زوجها فعل ذلك كي

تبتزّه في بيته، أو في النفقة، أو تقطع صلة رحمه بأولاده، وهذه تصرّفات عدوانية مجرَّدة تماماً من الروح الإنسانيّة، ولا تمت إلى السلوك الإنساني بشيء لأن طبيعة الإنسان بشكلٍ عام وأينما كان موطنه لا تقبل بمثل هذه القطيعة الرحميّة ليس مع الإنسان فقط، بل لا تقبلها حتى مع الحيوان.

قبل أن أدخل السجن، كان أحد أولاد قريبٍ لي يقيم بصفة لاجئ في إحدى الدول الأجنبية، وتقدَّم بطلبٍ إلى المسؤولين هناك وقال بأنّه مشتاق لأبيه الذي لم يره منذ سنتَين، فتكفّلوا بنفقات وترتيبات سفر الأب وأتوا به بالطائرة كي يلم شمله بابنه، كانوا يعتبرون بأنَّهم من خلال ذلك قدَّموا إنجازاً إنسانياً من خلال صلة رحم أبٍ بابنه، وكل واحد منهما كان يقيم في قارّة. ولذلك أخذوا على عاتقهم كل نفقات هذا اللقاء بما في ذلك إخراج جواز سفر له في بلده، وتكاليف تذكرة الطيران، وخصّصوا له مسكناً وراتباً في دولتهم. هؤلاء عملوا بما قال الله في القرآن: {**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ**}[12]. في ذاك الوقت كنتُ أعرف شخصاً لم يتمكّن من رؤية أولاده لمدّة أربع سنوات، وهم يقيمون في مدينة واحدة دون أن يردّ أحدٌ عليه رغم تقديمه لعشرات الطلبات إلى جهاتٍ رسمية عديدة.

---

[12] سورة الرعد، الآية 21

والمرأة في ذاك المجتمع، لا تقبل لنفسها أن تحرّض أولادها على أبيهم، أو تسيء إلى سمعته أمامهم كي تُحقّق بعض المآرب، والأب في حال ارتكابه جناية حقيقيّة بحق زوجته، فإنَّهم يؤمّنوا له مسكناً عندما يخرجونه من مسكنه الزوجي، يؤمّنوا له راتباً إن كان بلا راتب، أو بلا عمل، ويمكن له بسهولةٍ أن يتزوّج من غير معوّقات، ويتواصل مع أولاده متى شاء.

هذا القانون الوضعي جاء مفصَّلاً لتلك البيئة، لكنه في بيئتنا القبلية والعشائرية وفي ظل الفاقة، وعدم وجود فرص عَمَل، والنسبة المُرتفعة جداً في أمّيتَي التعليم والثقافة، ونشر الفساد، واحتكار السلطات، وانتشار الفتن، والضغوطات الاجتماعية والمعيشية، يكون إقحاماً على المجتمع، ولذلك تفاقمت جرائم قتل النساء بشكلٍ مروع، وأُصيبت البيوت الزوجية بنزيف داخلي، وتشتتت العائلات، تشرّد الأطفال، شاع الانحراف، وأعداد النساء اللواتي قُتِلن خلال عشر سنواتٍ سابقة في بلادنا، تجاوز أعداد النساء اللواتي قُتِلن خلال مئتَي سنة سابقة بسبب خلافاتٍ زوجية، أو جرائم الشرف في العالَم كلّه، تحوَّل هذا القانون إلى وأدٍ حقيقيٍّ للنساء في بلادنا، لكن بشكله المعاصر من خلال قانون الأسرة.

قبل هذا القانون ما كنا نسمع بقتل امرأة إلّا نادراً، ذات يومٍ سألتُ جدّي الذي بلغ الخامسة والتسعين من عمره عن قتل

النساء، والطلاق، فقال بأنّه خلال ذاك العُمر الذي عاشه، لم يسمع سوى بقتل امرأتَين فقط، واحدة بسبب الخيانة الزوجية، والثانية لأنّها تزوَّجت رغماً عن أهلها بالخطيفة، وكذلك سمع عن حالتَي طلاق فقط.

وما كان بوسع أحدٍ أن يحرم أباً من أبنائه، أو امرأة يبلغ بها النشوز إلى درجة التمرّد على زوجها، وعدم فتح الباب له كي يدخل إلى بيته، وإذا لبث يطرق الباب، جاءت الشرطة وأخذته بمجرّد اتّصالٍ من زوجته، وفقط تقول: يُهدّدني. فيتوقّف بتهمة التهديد. المرأة في تلك البلاد تترفّع بنفسها عن فعل مثل هذه السلوكيات القميئة، كل مقوّمات حياتها تمنعها من ذلك: ثقافتها، تحرّرها الاقتصادي، تربيتها، مسكنها الخاص بها، حريّتها الشخصيّة، عملها، علاقاتها مع الآخَرين.

قال غسان:

(هلي مالبّسوا خادم سملهم،

وبكبود العدا بايت سملهم،

إن كان أهلك نجم، أهلي سمالهم

كثير من النجم علا وغاب).

فقالوا: الله.. الله.. زدنا يا غسان.

قال: (هلك بالشام وهلي بالجاي منهم

يا ربي دوم ع الهجران عينهم

مرت سنين وما جى خبر

يا عيني مرت سنين

وما جى خبر عنهم

ولا طار شلفي من يم الحبايب).

ثم بعد لحظاتٍ قال: في بلاد العالَم، نسبة الجريمة تنخفض، إلّا في بلادنا فإنها تزداد،

في بلاد العالم، الانتهاكات الإنسانية تنخفض إلى أدنى مستوياتها، إلّا في بلادنا فإنّها ترتفع إلى أعلى مستوياتها،

في بلاد العالَم أصبح همّ الشخص أن يقدَّم مسرَّةً للآخر بما يستطيع،

في بلادنا أصبح همّ الشخص أن يستفزّ الآخَر بما يستطيع،

في بلاد العالَم، يبسط الأمن دفأه على الناس،

في بلادنا يبسط الرعب صقيعه على الناس،

في بلاد العالَم تمتلىء الربوعُ بالمسارح، والسينمات، والمراكز الثقافية والمكتبات، والحدائق،

في بلادنا تمتلئ الربوعُ بالسجون، والثكنات، والمشافي، ومراكز الشرطة.

لا أحلم سوى بشيءٍ بسيط جدّاً وهو أن تصبح بلادنا مثل بلادهم، ويبدو أن حلمي البسيط جداً هذا بعيد المنال.

أحياناً كنتُ أقرأ الأخبار التي تشير بأن الشرطة ألقت القبض على القاتل بعد ساعة من ارتكابه الجريمة بحق زوجته، كنتُ أنظر إلى ديكوراتهم بسخرية وأقول: تستحقون مكافأة على هذه السرعة في إلقاء القبض عليه، ثم أقول: هل حقاً لا تعلمون بأنكم أنتم مَن دفعتهم هذا المسكين لارتكاب هذه الجريمة بحق زوجته، شجّعتم تلك المسكينة كي تتمرَّد على زوجها وتلقّى حتفها على يدَيه.

حوَّلتم السلطة إلى وبالٍ على الناس، بدل أن تخفّفوا بها من الجرائم، مسدَّساتكم التي تحملونها بدل أن تحقّق السَكينة للناس عندما يرونها، أصبحت تثير فيهم الفزع وهم يرونها معلَّقة على أقفيتكم، لأنكم تتهجمون بها على بيوت الناس الآمنة لمجرّد اتّصالٍ من امرأة وهي في حالة غضب نتيجة سوء فهم وقع بينها وبين زوجها، فساهمتم في تأجيجها على زوجها، أتحتم الأسباب التي تجعل الجرائم والمشاحنات تتفاقم في قلب المجتمع، فتَّتتم العائلات، شرَّدتم الأطفال، تحت ذريعة مناهضة العنف ضد المرأة، يا له من عنوانٍ برّاق، ويا لتلك السرعة التي تقبضون فيها على الذين يرتكبون تلك الجرائم، تقتحمون عليهم بيوتهم لمجرّد سماعكم صوت امرأة في

الهاتف تقول بأن زوجها رفع صوته عليها، فتهرعون ككلابٍ مسعورة وتلقون القبض عليه من بين أولاده بتهمة إلحاق الأذى النفسي بزوجته، بتهمة تهديدها بالقتل. تُخرجونه من بيته الآمن الذي قضى عمره حتى اشتراه كي يرتاح فيه، فلن يرى أمامه إما أن يسكت ويحتمل ويتحوَّل إلى فأرٍ في البيت ويترك زوجته تسترجل عليه، أو يطلّقها، فتأخذ منه البيت كي تربي أولادها فيه في فترة الحضانة، وتطرده من بيته، ومن بين أولاده، وتمنعه من رؤيتهم، وترغم عليه أن ينام في الفنادق، أو حتى في الشوارع، وكل شهر يقدّم لهم النفقة، وإن تأخَّر يومَين، سوف يلقى السجن لأنّه لم يدفع النفقة، مهما كانت ظروفه سواء أكان مريضاً، أو عاطلاً عن العمل، أو يصل إلى قرار أن يقتلها ويقيم في السجن، لأنه يرى بأن ذلك أفضل الحلول بالنسبة إليه، وعلى الأقل سوف يرى أولاده كل أسبوعٍ مرة في السجن، ويرى مكاناً آمناً ينام فيه، ويأكل ويشرب ويستحم، فيحقّق له السجن ما لا يُحقّقه له الخارج من صلة الرحم بأولاده، والهدوء النفسي، والارتياح من هواتف الشرطة، وملاحقاتهم.

هؤلاء لا عمل لديهم، عملهم الوحيد هو خراب البيوت، ينتظرون، وأحياناً يتسوّلون اتّصالاً من أي امرأة بهم، كي يهبّوا

وتدبّ الحركة في أوصالهم، يُشكّلوا دوريّة بكامل السلاح والعتاد كما لو أنّهم سيزحفون إلى فتحٍ مُبين.

اغتيال الهيبة

ابتسم غسان نصف ابتسامة وقال:

(عيونك سود يا حبر الدوالي، عليل ونومة فراشك دوا لي،

يا ما ما وصفولي الدوا وأنت الدوا لي،

عن يدّك ختم جرحي وطاب.... ومنعود نرجع للي يحبن قلبنا).

فقالوا: الله.. الله.. زدنا يا غسان.

قال: (ها لأسمر اللون، ها لأسمراني

تعبان يا قلب خيوه، هواك رماني

يابو عيون وساع، حطيت بقلبي وجاع

بعطيك سبع رباع خيوه، من عين آه رسمالي

يابو قلب فضة، على ايش ها لبغضة

بعطيك تترضى خيوه، من عين آه رسمالي).

وبعد ثوانٍ، قال: لي ابن عمٍّ، بلغ الأربعين من عمره ولم يتزوَّج، وهو مهندس ولديه مكتب هندسي، سألته ذات يومٍ عَن سبب عدم زواجه، فضحك ضحكات صغيرة متتالية وقال: الزواج في واقعٍ كهذا يا بن عمّي أكبر مُخاطَرة يمكن أن يقدم عليها الإنسان، بقي أن يكون المرء محظوظاً، ويعثر على

امرأةٍ طيّبة وابنة حلال، تلقَّت تربية أصيلة من أهلِها، تخجل منهم، تحسب لهم حساباً. الأهل ليس وجود أبوَين وأخوة وأقرباء فقط، الأهل هم التربية الأصيلة، والمنزلة الاجتماعية التي يتمتَّعون بها في المجتمع.

أحسَّ إدريس في تلك اللحظات بأنَّه تلقّى صفعة، كما لو أنّه وجّه إليه الكلام، تخيَّل نفسه عندما تهجَّم على رجلٍ في بيته، لمجرَّد أنّه متزوّجٌ من أخته، أعطى لنفسه الحق في ذاك الاقتحام السافر، والآن يدفع الثمن باهِظاً، يدفع الثمن وهو يشعر بأنّه لم يُظلَم، بل يستحقّ أن يدفع هذا الثمن الباهظ من عمره وحريَّته، وعائلته الصغيرة التي كان قد بدأ يكوّنها للتو.

قال خطيب: هؤلاء أول شيْ فعلوه، هو أن وجَّهوا الضربة القاصمة إلى هيبة الرجل في بيته وأمام زوجته وأولاده، الهيبة التي هي أساس بناء البيت الزوجي. لم يصلحوا خلافاً واحداً نشب بين زوجٍ وزوجته، بل أجَّجوه، لم يحافظوا على تماسك عائلة واحدة، بل فتّتوها، أشاعوا العداوات والمشاحنات بين الزوج وزوجته من جهة، وبين أهلَي الزوج والزوجة من جهةٍ أُخرى. يداهمون البيوت مدجّجين بأسلحتهم كأنّهم فرق إنقاذ جاؤوا على جناح السرعة لإحباط عملٍ إرهابي مروع، يُخاطبون الزوج باستصغارٍ أمام زوجته وأبنائه، ضاربين بحرمات البيوت الزوجية عرض الحائط.

الخلافات الزوجية بالغة الحساسية، حتى رب العرش العظيم لم يسمح لأحدٍ التدخّل فيها، ولذلك بقي الزواج مثالاً يُحتذى به في بلادنا، وكانت نسبة الطلاق التي تكاد تكون معدومة، تبهر المجتمعات الغربية عندما كانوا يزوروننا كسيّاح ويطّلعون على هذا التماسك والتآلف الأسَري، حتى وإن كان الرجل متزوّجاً من أكثر من امرأة في وقتٍ واحد. فكانوا ينظرون إلى ذلك بانبهار، ويؤلّفون الكتب، ويعدّون التقارير والاستطلاعات عن ذلك، ويقدّمونها لمجتمعاتهم، أجل، سنوات طويلة كانت تمضي في بلادٍ بأكملها دون أن تلقى امرأة القتل، بل حتى تلك النسبة الضئيلة جداً من جرائم القتل بشكلٍ عام كانت ملفتة لأنظارهم، فكان ذلك يدفع البعض للقيام بزيارة بلادنا كسيّاحٍ إضافة إلى اعتناق الكثيرين منهم للإسلام، سواء من النُخَب الثقافية والعلميّة، أو من عامة الناس في بلاد الغرب.

في ظل هذا القانون، نسبة الطلاق في بلادنا، إلى جانب نسبة الجرائم اليوميّة التي تُرتكَب بسبب خلافات بين الزوجَين، غدت تفوق نسبة الطلاق ليس في بلادهم فقط، بل في كل بلدان العالَم. وإذا أخرجنا دعاوى الخلافات الزوجية من المحاكم، لأصبحت المحاكم شبه فارغة من كل تلك الحشود التي تزدحم بِها. وإذا أخرجنا المساجين الذين سُجِنوا بسبب

قانون الأسرة، لكادت السجون تخلو من كل تلك الحشود من المساجين. الآن انعكسَت الآية تماماً، فصارت وسائل الإعلام تنقل إليهم كل جرائم القتل المستفحلة التي تقع بشكلٍ يوميٍّ بحق النساء، وكذلك الجرائم التي تُرتَكَب بشكلٍ عام وتشمل حتى الأطفال، والنسب المرتفعة جداً في حالات الطلاق وتفتيت العائلات.

عند ذاك صبَّ خالد لكل واحدٍ كأساً بلاستيكيّاً من الشاي، واستطرد خطيب يقول وهو يتناول كأسه من يد خالد: في حال التصعيد المرتفع بين الزوجَين، أذن الله لشخصٍ واحدٍ فقط أن يتدخّل، شخصٌ واحدٌ لا غير من طرف الزوج دون أن يجلب معه أحداً، وشخص واحد فقط من طرف المرأة دون أن يجلب معه أحداً، ويكون الرجلان من أحكم رجال الطرفَين، يُعرَفان بالحكمة، والنضوج الفكري، والصلاح، والاعتدال.

هذان الرجلان يجلسان معاً ويتناقشان الخلاف بمنتهى الهدوء والحكمة، قال الله سبحانه وتعالى: {**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرا**}[13]. واضحٌ هُنا بأن الشقاق بين الزوجَين غير مقبول ما أمكن، وهو أمرٌ مُخيف يعكس عواقب سلبيّة على الأبناء، بل حتى على أخوات

[13] سورة النساء، الآية35

الزوجة سواء أكنّ متزوّجات، أم عازبات، لأنّ طلاق واحدة، قد يؤدّي إلى طلاق الأخرى.

الأمر في هذه المرحلة المتوتّرة بين الزوجَين لا يحتمل تدخّل أحد بشكل عشوائي، مثلما يحدث عندما تداهم دورية شرطة العنف الأُسَري البيت الزوجي وتعتقل الزوج أمام أبنائه لمجرَّد اتّصال هاتفي من الزوجة وهي في حالة انفعال، ولولا هذا التدخّل الهمجي السريع، لهدأت تلك الزوجة بعد ساعة أو ساعتَين، وناماً معاً على السرير وتبادلا القبلات الحميمة، ومارسا العلاقة الزوجية أيضاً.

فعند نشوب الخلاف الزوجي، لا يأذن الله حتى لأقرب المقرَّبين بالتدخّل وهم الأهل، ولو بكلمة واحدة، لأن تحدّي الشرع الإلهي له ثمنه الباهظ،

وكل ما عليهم أن يفعلوه عند حدوث التصعيد المتقدّم بين الزوجَين، أن يكلّفوا شخصاً حكيماً من كل طرف، لأن الانفصال في حال وقوعه لا يكون مقتصراً على الزوجَين فحسب، بل يشمل عائلَتَيهما أيضاً، فكما أن ارتباطهما أدى إلى ربطٍ علاقة عائلية بين العائلتين، فإن انفصالهما سيؤدي إلى فكاكٍ بين عائلَتَيهما كذلك، فيبذل الحَكَمان ما بوسعهما لإصلاح الشقاق الذي أصاب بناء العلاقة الزوجية بينهما في حال رغبتهما في الصلاح، كأن تكون الزوجة في حالة استياء من زوجها، وقد

لاذت بأهلها، أو أنه يتعمّد الخروج من البيت باكراً، ولا يعود إلّا في وقت متأخر من الليل بسبب تصاعد وتيرة الخلاف بينه وبين زوجته، وتفادياً من إلحاق الأذى بالأطفال في حال حدوث صِدام بينهما، فإن شمَّ الأهلُ رائحة الطلاق، وأصبح لديهم حدسٌ بأنه على وشك الوقوع، ولأن الأمر يعنيهم، حينها يكلّفوا رجلَين حكيمَين من خيرة رجالهم الذين عُرِفت عنهم المقدرة الحكيمة على التأثير والاقناع بالحق، وألّا يُقحما نفسَيهما في هذا الخلاف الذي نشب بين الزوج وزوجته، ويكون ذلك بموافقة الزوجَين، بل لعله بطلب منهما، حتى يصغيا إلى الحَكيمَين الناضجَين المُعتبرَين في عائلَتيهما، وهما يقوما بهذه المهمة الاصلاحية إنقاذاً لهدم بيت، وتشتت عائلة، وخلاف بين عائلتين متناسبَتَين، فيصلح هذان الشخصان ما تم إفساده في بيتهما الزوجي.

توقف خطيب لثوانٍ، رشف رشفة من الشاي وهو يشكر خالد على إعداد الشاي، وأردف يقول: ثقوا تماماً بأن لا حل لهذه الأزمات التي نواجهها سوى الإيمان الحقيقي.

لا شيء أكثر مِن الدِّين يُصلِح الإنسان، ومهما كان بالإنسان من اعوجاج، فإن الدِّين يُصلحه إلى الاستقامة، ولذلك فإن الذي يخسر الدّين، يخسر كل شيء، والذي يربح الدِّين، يربح كل شيء.

قال معاذ الذي كان ذا أذنَين كبيرتَين بارزتَين، وكانت شفته السفلى مشقوقة في منتصفها: كيف نتعرّف على الإيمان بشكلٍ جيّد يا خطيب؟

قال خطيب: الذي يؤمِن بوجود الله، لا يقربه خوف، لأن إيمانه يقف حائلاً بينه وبين أي خوف، وخوف الله هو الذي لا يأذن لأي خوفٍ أن يعلوه. فما دمتَ تؤمن بالله، فأنتَ تخافه، وهذا الخوف بذاتِه هو حصانة لك من أي خوفٍ دونه. وأمّا إذا لم تشعر بهذه الحصانة وغَلبكَ خوفٌ من دون الله، فعليكَ أن تُراجِع إيمانك، وتُراجِع خوفكَ من الله حتى يترسَّخ الإيمانُ في قلبك، وعندها تترسَّخ حصانة الخوف من الله في قلبك.

خطيب

كان خطيب هزيل الجسد، ذو لحية صهباء، دخل السجن بسبب قتله لأخته (ميسون) التي كانت متزوّجة ومستقرّة في زواجِها، ولكن إحدى جاراتها وكان اسمها (رامية)، استطاعَت أن تقنعها كي تتقدَّم بشكوى على زوجِها عندما نشب بينهما خلافٌ بسبب رغبة ميسون في العمل كممرّضة عند أحد أطباء الأمراض الجلديّة، لكن زوجها (علاء الدين) الذي كان يتحدَّث بخنخنة، رفض ذلك، فنشب بينهما خلافٌ. وعندما زارتها جارتها رامية التي كانت مطلَّقة مرَّتَين عن طريق المحاكم والشكاوى، قالت لها بأنّها إذا تقدَّمت بشكوى على زوجها لدى شرطة العنف الأُسَري: سوف يستدعونه ويأخذون منه تعهّداً بعدم مضايقتك، وبذلك سوف تتمكَّنين من العمل.

في البداية تردَّدت ميسون في تقديم الشكوى، ومع تكرار الجارة عليها ذاك المُقترَح، وإصرار زوجها بعدم الموافقة على عملها، أخبرته بأنّه بتصرّفه هذا يحجز حريّتها الشخصيّة، ويتعامل معها كما لو أنّها جارية لديه.

فوجئ علاء الدين بهذه اللهجة الجديدة التي سمعها مِن زوجته، ولم يردّ عليها، ومضى إلى غرفةٍ أُخرى مكفهرّ الوجه، تلافياً لأي صِدام قد يحصل بينهما، لأنّها بدت مصرَّة على

مطلبها، وتتحدَّث معه بألفاظٍ لم يسبق لها أن نطقت بها أمامه. بَيد أنّها لحقته إلى الغرفة يتقدَّمها صوتُها، وجذبته من قميصه وهي تقول باندفاعٍ وقوة: ليكن بعلمك يا علاء الدين، سوف أعمل إن شئتَ أم أبيت.

فقال قولاً واحداً بحسمٍ: ارجعي إلى أهلكِ يا ميسون، لا تلزميني.

هزَّت كتفَيها وضحكت باستهزاءٍ قائلةً: ماذا قلت؟ لم أسمعك.. ذاك عهدٌ مضى يا علاء الدين أفندي، بل أنتَ ارجع إلى أهلك!

انتفخ عنقه بالعروق، تقدّمَ إليها وسدَّد صفعةً مدويةً إلى خدّها، ثم دفعها حتى أخرجها من البيت وصفّق الباب خلفها.

عند ذاك اتَّجهت ميسون على الفور إلى جارتها رامية وأخبرتها بما حصل، فضمَّت رامية رؤوس أصابع يدها إلى بعضها وقالت: سوف يدفع الثمن باهظاً على تجاوزه بحقّك، نحن نعيش تحت حماية قانون الأسرة. ثم اصطحبتها على عجل وذهبتا إلى مركز شرطة العنف الأُسَري، وتقدَّمت ميسون بشكوى على زوجها بكونه عنَّفها وطردها من البيت.

وبعد نحو ساعةٍ ونصف من خروجها، جاءت دورية من شرطة العنف الأُسَري إلى بيت علاء الدين، فامتنع عن الخروج من البيت، بل طردهم وصفق الباب في وجوههم وهو يقول:

إذا كنتم رجالاً، اذهبوا بهذه الأسلحة إلى أعدائكم الذين صرعتمونا بهم، أم أنّكم أقوياء علينا فقط، نحن العزَّل، وتجرّبون أسلحتكم وتخيفوننا بها، بأيّ حقٍّ تتهجَّمون على بيوت الناس يا كلاب، يا جبناء، لو كان لديّ مسدَّس لما تركتُ واحداً منكم حيّاً ولأرحتُ بيوت الناس الآمنة من وبائكم، لعنة الله عليكم إلى يوم القيامة. وعندها عادت الدورية، وعند الساعات الأولى من الفجر، أحسَّ علاء الدين بأصواتٍ غريبة في بيته، ثم رأى قوَّةً من الشرطة اقتحمت البيت من النوافذ، وألقت القبض عليه واقتادته مقيَّد اليدَين والقدمَين إلى المركز استناداً إلى شكوى قدَّمتها عليه زوجته تتّهمه فيها بأنّه مارس العنف بحقّها، وأنّه طردها من البيت بالقوة، وكذلك إلى امتناعه عن الذهاب مع الدوريّة وتوجيه الشتائم لها.

***

عند دخوله إلى غرفة التحقيق وكانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً، رأى زوجته برفقة الجارة رامية التي كانت تعلك علكة في فمها وتنظر إليه بلؤم، تذكَّر في تلك اللحظات ما قاله له جاره عادل ذو الصلعة الملساء، والملامح القاسية الصارمة، عندما رآه في السوق ذات يومٍ: يا جاري العزيز، رأيتُ جارتنا المطلَّقة رامية تدخل إلى بيتك أكثر من مرة، أنصحك يا جاري لتبتعد زوجتك عنها، هذه مُطلَّقة محاكم، ولا أحد

يُدخلها إلى بيته، ولا أحد يسمح لزوجته أن تعقد معها علاقة، ويُخاف منها أكثر من أيّ امرأةٍ أخرى، فهي اعتادت على المحاكم، ويمكن لها أن تستغلّ خلافاً ينشب بين زوجةٍ وزوجها، فتستدرج الزوجة في لحظات الانفعال تلك إلى المحاكم كي تُصبح مثلها، وكلّما تستدرج امرأة، تبحث عن غيرها، هذه يا جاري جرثومة مسرطنة تمشي على الأرض وتدخل البيوت، وسبق لها أن تسبَّبت في طلاق زوجتي عن طريق المحاكم، زوجتي التي كانت تخاف عندما كانت ترى شرطيّاً، أفسدتها وجَعَلَتها تعتاد على المخافر وعرَّفتها على المحامي الذي سبق أن أوكلته مرَّتَين في طلاقها من زوجَيها السابقَين، التقيتُ به مرّة، ثم سألتُ عنه فقيل لي بأنّه يبتزّ النساء، وسمعته الأخلاقيّة مشبوهة، وهو الذي تسبَّب في طلاق عشرات النساء، أحذّرك من هدّامة البيوت هذه لأنّني أعرف بأنك رجلٌ طيِّب وبعيد عن المشاكل.

وزَّع نظراته عليهما، ثم هزَّ رأسه وطلَّقها على الفور قائلاً: كوني يا ميسون مثلها مطلَّقة أفضل لك، (الطيور على أشكالها تقع).

***

لبث علاء الدين موقوفاً حتى يأتي دوره ويتم تقديمه إلى المحكمة صباح الغد عن شكوى التعنيف بسبب كثرة الموقوفين، وعادت ميسون إلى بيته كأن شيئاً لم يكن.

وفي المساء جاء خطيب إلى بيت أخته عن طريق المصادفة، فأخبرته بأن علاء الدين موقوفٌ في السجن، وشرحت له ما حصل منذ البارحة، فاستاء وطلب منها أن تذهب معه على الفور كي تسقط حقّها عنه ليخرج من غرفة التوقيف ويعود إلى بيته.

قالت: لكنه طلَّقني، والبيت الآن من حقّي كي أربّي ابني فيه وهو في حضانتي.

قال: هذا بيته، وهذا النائم في البيت ابنه، لن أسمح لك أن تحتالين عليه.

قالت: لا أحتال عليه، بل هو قانون.

قال: قانوني هو أن ترجعي إلى بيتك في هذه اللحظة لأنك امرأة مطلَّقة بسبب نشوزكِ على زوجك، بل توصَّل بك النشوز أقصى مداه عندما شكوتِ عليه لأسبابٍ تافهة، هو حرٌّ في أن يأذن لك بالعمل، أو لا يأذن، لا أحد له سلطة عليكِ سواه، لو ذهب إلى آخر العالَم ستذهبين معه رغماً عنكِ. أنتِ الآن موجودة في بيت رجلٍ غريبٍ عنك ولا بدَّ أن تخرجي منه حالاً. ثم أردف يقول: فيما بعد قد نجد فتوى حتى يُعيدك إلى

عصمته مادام قد طلَّقكِ وهو في حالة غضب، ليكن بعلمكِ فأنا لا أسمح لأختي أن تشكو على زوجِها، أو تذهب إلى المحاكم، هذه إهانة لنا، ولسمعتنا بين الناس، فإما أن تعيشي مع زوجك بمعروف، أو ترجعي إلى أهلك بإحسان، لا ثالث لهذين الخيارَين في عائلتنا.

كزت على أسنانها وقالت: لن أخرج من بيتي.

أمسكها من يدها وأراد أن يخرجها بالقوة إلى المركز كي تسقط حقّها عن الشكوى، وتعود معه إلى بيت أهلها. فدفعته عنها وقالت: دعك عنّي، هذا بيتي ولن أخرج منه.

صُدِم عندما سمع ذلك منها، فأردفت تقول بغضب: أخرج من بيتي حالاً، وإلّا سأقدّم شكوى عليك أيضاً، أنا الآن في حماية شرطة العنف الأُسَري. جذبها من شعرِها وصار يهزّها قائلاً: لعنة الله عليكِ وعلى شرطة العنف الأُسَري. وانهال عليها ضرباً مبرحاً والعرق يتقاطَر من جبهته، فهرعت إلى إحدى الغرف وأوصدت الباب على نفسها، ثم ما لبثت أن اتَّصلت بشرطة العنف الأُسَري قائلةً بأن أخاها تهجَّم عليها في البيت واعتدى عليها بالضرب، وأنّه ما يزال موجوداً في بيتها. لبث خطيب يطرق الباب بيدَيه وقدمَيه وصوته يعلو: افتحي يا ناشزة، اعلمي بأنّني لن أخرج من هنا إلّا وأنتِ معي.

جاءه صوتُها من الداخل: سوف نرى إن كنتَ ستخرج أم لا.

بعد زهاء نصف ساعةٍ، وقعت طرقاتٌ قويّة ومتلاحقة على باب البيت، مضى خطيب إلى الباب وفتحه، فوجئ بدوريةٍ من الشرطة تقتحم البيت. في تلك اللحظات، فتحت أخته باب الغرفة وظهرت قائلةً: هذا هو أخي الذي عنَّفني، وكان سيستمرّ في ضربي لولا أنّني هربتُ منه إلى الغرفة وأقفلتُ الباب على نفسي، واتّصلتُ بكم.

اقتادته الدورية إلى المركز أصفر الوجه ويداه ترتعشان من الانفعال.

بعد تسجيل الضبط، أدخلوه إلى غرفة التوقيف التي كان صهره علاء الدين جالساً فيها مع مجموع الموقوفين، فقدَّم اعتذاره الشديد له على ما بدر من أخته وقال: معك كل الحق في طلاقها يا علاء، لو كنتُ مكانك لَما تردّدتُ في ذلك بحق امرأةٍ نشزت عليّ، ميسون تغيَّرت تماماً، لم تعد ميسون التي نعرفها، لم تنشز عليكَ فقط، بل تمرَّدَت عليَّ أيضاً، لكن قسماً بالله العظيم، لن أسكت على تماديها هذا حتى لو بقي يومٌ واحدٌ في حياتي.

قال: الحقيقة أنا أيضاً استغربتُ لتصرّفها الغريب نحوي، يبدو بأن جارتها المطلَّقة رامية حرَّضتها على هذا التمرّد، منذ البداية عندما رأيتها في بيتي، كان عليّ أن أمنعها من الدخول إلى البيت ومصاحبة زوجتي لأنّها مطلَّقة مَحَاكم، لكن لم يكن

يخطر لي بأنّها تحفر لها أيضاً كي توقعها في الحفرة وتجعلها مطلَّقة مثلها. أنتَ تعرف معزَّتك عندي يا خطيب، وأنتَ تبقى خال ابني الوحيد (زكريا) الذي بلغ الثامنة من عمره، لكن أختك تمادت عليَّ كثيراً، أعرف يا خطيب بأن كلمة الطلاق ثقيلة عليَّ وعليك، وعلى عائلتَينا، وعلى ابننا، ولكنَّها تجاوزتْ معي كل حدود العلاقة الزوجية حتى اضطررتُ إلى قولها.

توقَّف خطيب أسبوعاً في السجن، ثم خرج بكفالةٍ، وعندها ذهب إلى البيت، حمل المسدس واتجه إلى أخته، فلم يجدها، وقيل بأنّها باتت تعمل ممرّضة لدى طبيب أمراضٍ جلديَّة، فركب سيّارة أجرة واتَّجه إلى العيادة، كانت جالسة خلف الطاولة في عملها المسائي، وعندما رأته، نهضت مذعورة، فأطلق عليها كل ما في المسدَّس من عيارات ناريّة.

***

كان خطيب عازباً وعُرِف بين الناس بميله إلى الدِّين، فقد أطلق لحيته، وكان يتردَّد كثيراً لصلاة الجماعة في مسجد الحي الذي يقطنه، وأحياناً كان يؤذّن بدلاً عن مؤذّن المسجد، وعندما دخل السجن، انكبَّ على قراءة القرآن حتى حفظه عن ظهر قلب من القاب إلى القاب، وتحوَّل إلى داعيةٍ وإلى إمامٍ في المهجع، فيأتي إليه المساجين ويستشيرونه في بعض شؤونِهم. كان يقول بأن من أفضال السجن عليه، أنّه أتاح له قراءة القرآن

قراءات متأنيّة حتى حفظه، وحفظ رقم كل آية فيه، وفي أيّ سورة موضعها، وكان يقول بأن الحفظ يتيح له أن يستوعب معاني الآيات أكثر، فيقرأها بتأمّل وصفاء ذهن دون أن تشغله عيناه بالنظر إلى الكلمات، أو بتقليب الصفحات، فيسبح في فضاء الآيات وهو يقرأها في قرارة نفسه، فتتفتَّح زهورها في مخيّلته، وتنثر شذاها إلى حواسه، وإلى كل ذرةٍ في بدنه. وكان يخصّص يومَي الاثنَين، والخميس، كل أسبوعٍ يعطي فيهما دروساً لمن يرغب من نزلاء المهجع في حفظ القرآن، وكان يصوم في هذين اليومَين، لكنه كان يقول بأن ذلك لا يغنيه عَن القراءة الورقية من المصحف، لأن لتلك القراءة أيضاً مزيّتها، وكان بين فترةٍ وأُخرى أحياناً يقوم الليل.

الحصانة

كان خطيب يعيد كل شيء إلى الإيمان، ويرى بأن لا شيء يحقّق للإنسان السلام الداخلي، مهما كانت ظروفه وتقلّبات الحياة عليه، سوى الإيمان،

يسترسل في الحديث خاصّة في المناسبات الدينيّة، ويذكر إدريس أنه ذات يومٍ في وقفة عيد الأضحى قال: عندما يُريدُ الإنسانُ أن يفعلَ شرّاً بحق نفسِه، أو بحقِّ الآخرين، فإن اللهَ لا يأذنُ أن يحصلَ ذلك بعُجَالة، لعلّه يتراجَعُ عن فعل هذا الشَّرّ.

وفي ذلك نفعٌ للطرَفَين، للأوّل الذي وقاهُ اللهُ من ارتكابِ الشَّرِ، وللثَّانِي الذي وقاه اللهُ من وقوعِ فعلِ الشّرِّ عليه.

وهذا يعني بأن اللهَ أنجاكَ من محاولاتٍ كثيرةٍ أُحِيكَت لإلحاقِ أفدح الأضرارِ بك، وقد أحبَطها الله. ومِن هذه المُحاولاتِ، ما علِمتها سواء في حينِها، أو بعدَ حينٍ، ومنها ما لمْ تعلَمْها.

فهي إتاحةٌ من اللهِ كي يتراجع مَن أقبلَ على الاعتداءِ، وكي يحذرَ مَن أنجاهُ اللهُ من وقوعِ الاعتداءِ عليه، وتكرارُ إحباطِ ذلك بالنِّسبَة للطرفَين المرةَ تلوَ المرة، يكون لغاية الإصلاحِ للأولِ، والتَّنْبيه للثّاني. لكن إذا ما اتَعظَا، يكون الإمهالُ قد بلغَ نهايتَه بالنّسبة لكليهما، أو بالنِّسْبَةِ لأحدهما، فقد يتّعِظ

أحدُهما سواء أكانَ الأوّلَ أو الثّاني، لكن الذي لا يتّعظُ يتحقُّق فعل الشرِّ سواء بالنِّسْبَة له، أو بالنِّسْبَةِ عليه. ودوماً للشرِّ إشاراتٌ حتى لا تكونَ مُغفّلاً في حياتِك، بل يَقِظاً ومُتَحسِّساً لِما يدورُ من حولِك، لأن الله لا يتحدَّث معنا، ولكن يرسل لنا إشارات تكون أبلغ من أبلغ كلام.

فأي إنسانٍ شرّيرٍ، توجدُ فيه علاماتٌ يمكنُ لك أن تكتشفَها بشيءٍ من اليَقظَة، وقد متّعَ اللهُ الإنسانَ بحدسٍ يمكنُ من خلاله أن يتحسّسَ الصَّوابَ من الخطأ، إذا تمعَّنَ في الأمرِ جيّداً.

والإنسان حتَّى لو أخطأَ نتيجةَ حُسن نيّة، أو غفلةٍ، فإنه يتّعظ، والخَطرُ الذي يكونُ في بيتك، ونجوتَ منه، عليك أن تُصلحَه، الشَّخصُ الذي رأيتَ منه غدراً، عليك أن تحتاطَ منه، بل حَتَّى اتباعك لسلوك سلبي يجلب لك الأذى، عليك أن تُقلِعَ عنه لأنه بغتةً قد يودِي بك، ولم تعدْ تجدُ فرصةً للإمهال لأن الله أمهلَك إمهالاً تلو إمهالٍ ولم تتّعظْ.

ثم أضاف خطيب يقول بأسلوبه الهادئ وهم يصغون إليه بإنصاتٍ: فإذا كان ذلك يحصلُ بالنِّسْبَة للشرّ، فإن عكسَه يحصلُ بالنِّسْبَةِ للخير، أي عندما يقدِم الإنسانُ على فعل خيرٍ، فإن الله ييسّرُه له، فيكونُ النفعُ لفاعل الخَير، ولِمُتلّقّي الخيرِ معاً. وعلى سبيل المِثال، فإذا دعَت أمٌّ على ولدِها بالشر، وأمٌّ

أخرى دعَت على ولدِها بالخيرِ في نفسِ الوقتِ، فإن دُعاء الخير يُقبَل قبل دُعاء الشَّرِّ، وقبول دُعاء الشَّرِّ لا يسبِقُ قبولَ دُعاء الخير. ولذلك فإن الخيرَ في الأرضِ هو أكثرُ من الشَّرِّ، وأن الذين يُعمّرون الأرضَ هم أكثرُ من الذين يُدمِّرُونها، والأيدي التي تزرعُ الطَّعامَ للنَّاسِ هي أكثرُ من الأيدي التي تزرعُ الألغامَ في دروبِهم. أمّا إذا كنا نظلم بعضنا بعضاً في البعض من بلادنا، فإنّ هذه البلاد لا تشكّل إلّا نسبة ضئيلة جداً من بلدان العالَم ومن مساحة الكرة الأرضيّة، كمثل نقطةٍ في بحر، الناس في العالَم يستمتعون بحياتهم بطولِها وعرضها ذكوراً وإناثاً، ويشبعون من الحياة شبعاً على شبع، يمارسون أقصى مساحات حرّيتهم في كل شيء، ونظير ذلك، فإنَّهم يبدعون في الإنتاج ومبتكرات الرفاهية.

أجل يا أصدقائي الأعزّاء، فإن الإنسانِ الذي ينحرِفُ عن حدودِ اللّهِ، ويطْغَى، يعيشُ تحت سطْوَة العَمَهِ، ويشعر بأنه دائمُ الرَّكْضِ دون أن ينعمَ بلحظاتِ الاستِقرارِ الإِسْتِرخَائيَّةِ حَتَّى وهو في فراشِ النوم، هذه النعمةُ التي يسْتكينُ المؤمنُ في دوحَتِها حَتَّى لو كان في واقعٍ مُضطَرب. يكون محروماً من نعمةِ صفَاءِ الذِّهنِ، حَتَّى في لحظات استيقاظه صباحَاً من النَّوم، هذه النِّعْمةُ التي يَرْفلُ بها المؤمنُ حتَّى لو لم يكنْ قد نامَ ليومين نتيجةَ ظرفٍ ما.

ثم استطرد يقول وهو يوزّع نظراته عليهم واحداً واحداً: هذا كلُّه بمثابةِ التَّحذيرِ كي ينتبِه الإنسان، ويتراجعَ عن الإنتِهاكَاتِ سواء بحقِّ نفسِه، أو بحقِّ الآخرين، أن يقعدَ إلى ذكر الله، فينشرِحَ صدرُه، ويصفو ذهنه، مهما كان مُضْطَرباً. فكم هو شقيٌّ ذاك الذي يكون بعيداً عن ذكر الله، لأن بُعدَه عن الذكر هو بذاتِ الوقتِ بعدٌ له عن ربِّه الذي لديه كلُّ ما يحتاجُه، لديه كلُّ ما يراهُ مُسْتَحيلاً. فبين ليلةٍ وضُحاها يمكنُ لربِّ العالمين أن يَقلِبَ كلَّ شيءٍ رأساً على عقبٍ، يرى السّجينُ المُؤبَّد نفسَه حرَّاً طلُيقاً، ويرى سجَّانه قد أُوْدع السِّجنَ، بل يرى حاكمَ البلادِ إذا طغى، قد أُوْدع السِّجنَ. أجل حاكم البلادِ الذي كان لغاية البارحةِ يملكُ قصوراً يسْرَحُ ويمرَحُ فيها، الآن أصبحَ في غرفة انْفِرَادِيَّة في السِّجنِ مساحتُها تكادُ تضيقُ على جسدِه. والذي كان يأمرُ شعباً بأكمله فيُستَجَاب له، طفق يخبّطُ على بابِ زِنْزَانتِه، ويستجدي شرطيّاً كي يجلب له كأساً من الماء. فهذا الشَّخصُ عندما كانَ في ذروة تَمَكُّنِه، كانَ في ذروةِ طغيانه وبطْشِه، وهذا هو وعدُ اللهِ لكلِّ ظالمٍ، لكل مُنْتَهِكٍ. أجل فإن كلَّ شيءٍ يمكنُ له أن ينقلِبَ رأساً على عقبٍ، فلا يأسَ مع الإيمانِ مهما بدتِ الظُّرُوفُ قاسيةً.

ذكرك لله يجعلك تعالج مشاكلك بحكمةٍ وهدوء، فتخرج منها سالِماً، أو بأقل خسائر مادية ومعنوية، يحضّك وأنتَ في

كاملِ لَيَاقتِك وحَيَوِيَتِك ونشاطِك، بأنْ تَغْتَنمَ كلَّ طاقةٍ فيك وتُسخِّرَها لرضى اللهِ، تُقْبِل على أعمالِ الخيْرِ، فكلُّ خُطوَاتِك تمسي خطوَاتِ خيرٍ، كلُّ سَاعَاتِك تمسي ساعاتِ نفْعٍ، كلُّ أيَّامِك تمسي أيَّامَ صَلاحٍ، كلُّ طاقتِك الّتي أنعَمَ بها اللهُ عليكَ تَغْتَنمُها في سبيْلِ إرْضَاءِ اللهِ. تمسي في حالةِ خوفٍ إذا تماديت، فلا تُبْطِرْكَ لَيَاقَةُ البدَنِ، لا تُبْطِرْكَ الإمْكاناتُ المَادِّيَّة والمَعْنَويّة التي يتيحها اللهُ لك، فكنْتَ وقَّافاً عندَ حُدُودِه، تخْشَاهُ، تحْسِبُ له حِسَاباً، وقد جنَّبَكَ ذلك كلُّه البطر والتَّمَادِي.

أمّا الاسْتِمرارُ في مُمَارسَةِ الأخطاءِ يا أصدقائي، يجعلُها مُزيَّنَةً بالنِّسبةِ لمُرتَكِبِها، فتغْوِيْه حتَّى يبلُغَ هذا الإنسانُ مرحلةً لا يسْتمتِعُ فيها بالحَلالِ، بل بالحَرَامِ، لا يجِدُ نكهةً في الحَلَال، بل في الحَرَاْمِ، وهذا يمكنُ له أن يُقاسَ على كلِّ شيءٍ، مثل الكَسْبِ الحَلَالِ والكسْبِ الحَرامِ، فهو لا يَسْتَلِذُّ بالكسْبِ الحلالِ، وعلى قدْرِ ما يكسِبُ بالحرامِ أكثرَ، يشعرُ بالظَّفَرِ أكثر، فيغشُّ في كل ما يمْكنُ أن يغشَّ فيه حَتَّى يُحصِّلَ المالَ الحرامَ، مثل أن يحْتَكِرَ، يحلِفَ كذباً، يُرَابِي، يُوْشِي، يشهد زوراً، يبيعَ بِضَاعَةً فاسِدَةً، فأينما وجَدَ كسْباً حراماً، تركَ الحلالَ وهرَعَ إليه.

وعلى النَّقِيضِ من ذلك تماماً تكونُ شخصيّةُ الإنسانِ غيرِ المُسرِفِ الذي لا يُنمِّي الانحرَافَ في سُلوكِه، فيشْمَئِزُّ من مجرَّدِ

نظرةٍ حرامٍ، ينفُرُ من أيِّ مالٍ حرامٍ يقرَبُه مهما كانَ كبيراً أو صغيراً، فيُسرِع ويُعيدُه إلى صاحبِه إن كانَ قد وصلَه نتيجةَ خطأٍ ما.

حكمة فاتح

تذكَّر خطيب ما حدث لجاره فاتح، وقال: ذات يومٍ حصل خلافٌ بين أحد جوارنا، وزوجته على خلفيّة رؤيته لها مصادفةً وهي تخرج من بناءٍ سَكَنيّ، وكانت قد خرجت من البيت دون أن تخبره، ويَظهر بأنه شكّ في الأمر، فوبَّخها بالكلام وطلب منها عدم الخروج مرة أخرى من البيت دون علمه، عندها تقدَّمت زوجته بشكوى عليه عند شرطة العنف الأُسَري، وقالت بأنّه تسبّب لها بأزمةٍ نفسية بسبب تدخّله في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في شؤونها، وحجز حريّتها، ومنعها الخروج من البيت، وجعلها أسيرةً في البيت. فطلَّقها جارنا وطلب منها أن تسحب شكواها، نظير أن يعطيها البيت ما دامت ابنته في حضانتها، ثم طلبت منه أن يشتري لها سيارة، فاشترى لها، وأن يعطيها مبلغاً كبيراً، فأعطاها، وكذلك خصّص لها راتباً شهرياً طوال فترة حضانة ابنته.

يومها قلنا بأن جارنا فاتح رجل جَبَان، وقد استجاب لابتزاز المرأة له، والغريب في الأمر أن جارنا كانت لديه مواقف شجاعة، ولكن موقفه هذا ترك حيرةً لدى البعض من أبناء الحارة، ومن ضمنهم لديّ. لكن الآن يا زملائي السجناء، أدركتُ كم أن جارنا فاتح كان ذكياً، كم كان حكيماً. كان يقول: أعطيتها

كل شيء وعدتُ إلى الصفر لأبدأ منه، ولو يبَّستُ رأسي وعاندت، لدخلتُ معها في صراعٍ ولَما وجدتُ حتى هذا الصفر كي أبدأ منه من جديد. ويقول: الصراع مع المرأة في واقعنا هذا هو صراع خاسر مهما اعتقد الرجل بأنّه رابح، تشاجَر مع مئة رجل، خيرٌ لك من أن تتشاجَر مع امرأة. كان عمر بن الخطّاب يقول: (أقبح النساء السَلفَع). وهي السليطة اللسان والتي لا تستحي من الرجال وتتجرّأ عليهم. الحياء هو زينة المرأة، يقول ربُنا في كتابه الكريم: [**فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء**][14].

فيما بعد رأيته ذات يوم في السوق وكان قد تزوَّج مجدّداً واشترى دكّاناً يبيع فيه طلاء الجدران، كان جالساً على كرسيٍّ أمام باب دكّانه يحتسي الشاي وقد شمَّر عن ساعدَيه الكثَّين، وكنتُ أقود دراجتي الهوائية ببطء، وعندما رآني، ناداني وقال: تفضل جاري خطيب تفضل، اشرب كأساً من الشاي.

فتوقَّفتُ، وأوقفتُ الدراجة على وقّافتها بمحاذاة الرصيف، نهض فاتح الذي كان طويل الأنف، خشن الشعر، وأتى لي بكرسيٍّ من الداخل، فشكرته وجلست.

وبعد بعض الأسئلة المتبادلة عن الأحوال والصحة مع احتساء الشاي الذي كان ثقيلاً وحلاوته زائدة، قال وهو ينظر

[14] سورة القصص، الآية 25

إليّ: ثمة أمور هي أصغر من أن تضخّمها يا خطيب، وثمّة أمور أكبر من أن تصغّرها، تكمن المعضلة عندما يلتبس عليك الأمر ولا تستطيع أن تميّز بين الأمرَين. ثم نظر إليَّ وقال: لا تأبه بما يقول الناس عنك يا خطيب، أنظر إلى نتيجة ما قمتَ به، فإن كانت النتيجة جيّدة، فاعلم بأنّك بدأت بداية جيّدة، وإن كانت النتيجة سيّئة، فاعلم بأنّكَ بدأتَ بداية سيّئة، بصرف النظر إن كانَت عن حُسن نيَّة، أو عَن جهل. ثم رشف رشفةً طويلةً من الشاي وهو يمسك منتصف الكأس برأسَي السبَّابة والإبهام، وأراد أن يستأنف حديثه، لكن بدا بأنّه فقد حبل أفكاره، ونسي ما كان يقوله كي يستأنف، فسألني: ماذا كنتُ أقول؟

قلت: كنت تتحدَّث عن النتيجة الجيدة، والنتيجة السيّئة يا جاري.

قال مسترجِعاً حبل أفكاره: أحيانا تكون المواجهة في ظرف غير مناسب، هزيمة، وتكون الهزيمة في ذاك الظرف، مواجهة. ثم وضع يده على كتفي وقال: الواقع الذي بتنا فيه متوتّرٌ جدّاً، كن على يقظة يا خطيب، ربما غفلة صغيرة تودي بك إلى تهلكة لم تكن تتوقَّعها، ولم تكن تخطر لك على بال.

الشرخ

كانت السجالات تزاد غنى يوماً بعد يوم في المهجع الذي كان يبدو مؤنساً وليس موحشاً، وكان إدريس يتوق إلى سماعها، لأنّها كانت دوماً تبهره بالجديد، ويبدو كما لو أنّه لم يكن يعيش في ذاك العالَم خلال كل تلك السنوات، كان أحياناً يسمع ببعض الحوادث، ولكنه لم يكن يوليها اهتماماً، ظنّاً منه بأنّها تعني أصحابها ولا تعنيه بشيء.

الآن أدرك بأن كل ذلك كان يعنيه، وأن أيّ حادثٍ يقع لشخصٍ في المجتمع، يعكس تأثيره على المنظومة الاجتماعيّة برمّتها، لأن لا شيء يحدث في مجتمعٍ دون أن يترك أثره عليه، دون أن يترك شرخاً فيه، وعندما تزداد الشروخ، ينهدم المجتمع وينهار بمختلف مستوياته دون أن يسلم منه أحد.

أحسّ إدريس بأن المجتمع تحوَّل فجأةً إلى مجتمعٍ عدواني، دموي، كل شيءٍ بات يعزّز منهج الجريمة، أحياناً كانت تأتي دفعات كبيرة من المساجين عندما ينشب التقاتل بين بعض القبائل بسبب خلافاتٍ عائليّة، فيقتلون العشرات من بعضهم بعضاً، ويتم توزيعهم على المهاجع، ولا يجدون لهم أسرَّة، فيدسّون أجسادهم تحتها وينامون.

فلم يعد الناس يتشاجرون فيما بينهم شجاراً عادياً كما كانوا، غدا القتل سائداً حتى في أتفه الخلافات الاجتماعية، أو المالية.

منذ أيّامٍ جيء بأحد سائقي سيارات الأجرة اسمه (فهمي) إلى المهجع، كان وجهه مملوءاً بالنمش، وكان يحوم في المهجع كالممسوس، وعندما سألوه عن سبب دخوله السجن؟ قال بأنّه أوصل راكِباً إلى أحد الأحياء، فأعطاه الراكب مبلغاً ونزل، فقال للراكب: هذا قليل. وطلب أن يعطيه أكثر.

قال الراكب: يا أخي والله كل يومٍ أجيء بسيارة أجرة وأعطيه هذا المبلغ.

قال السائق: كان عليكَ أن تخبرني بأنك لن تعطيني أكثر من هذا المبلغ.

قال الراكب: وأنتَ كان عليك أن تخبرني بالمبلغ الذي تريد قبل أن توصلني. واستدار متّجهاً صوب بيته، حينها أخرج فهمي مسدسه الذي كان في تابلوه السيارة، وأطلق عليه رصاصةً من الخلف، وانطلق بالسيارة مسرعاً.

وبعد عشرة أيامٍ من التحقيقات، استطاعت الشرطة الجنائية أن تتعرَّف عليه من خلال إحدى كاميرات الرصد في إحدى الشوارع، وتوصَّلت إليه من خلال رقم سيارته.

الفصل الخامس

الدفتر

وقعت عينا إدريس على الدفتر الذي أتى به من السجن، عادت صورة طاهر إلى مخيّلته، طاهر ذو العينَين السوداوَين الغائِرَتَين، والوجه النحيف المائل إلى الصفار، الذي كان يبدو دائم الشرود بعمق، وعندما ينظر إلى أحدٍ، كذلك ينظر بعمقٍ ويطيل النظر إليه.

ذات يومٍ وكان الوقتُ نحو الهزيع الأخير من الليل، تناهى أنينٌ غريبٌ من طاهر الذي كان نائماً على سريره، وعندما استمرَّ الأنين، نهض بعض الذين كانوا ينامون على الأسرّة بالقُرب منه، واجتمعوا حوله، كان وجهه محتقناً، ويبدو في حالة إرهاقٍ شديدة.

هرول معاذ، رئيس المهجع، وطلب من الحارس أن يفتح الباب حتى يتمكّن من إخراج طاهر وإسعافه. ثم عاد سريعاً وحَمَله على ذراعَيه، عند ذاك وضع طاهر كفه بكف إدريس كأنه يصافحه مصافحة الوداع وقال له بلسانٍ كليل وصوتٍ متعب كما لو أن نبراته تنبعث من قاع بئر: إذا حصل معي شيء ولم أعد يا إدريس، خذ المخطوط واطبعه، هذه وصيّتي لك،

أمضيتُ خمس عشرة سنة وأنا أكتبه، سوف أكون سعيداً عندما يرى هذا المخطوط النور.

ضغط إدريس على كفه وقال: اطمئن يا طاهر، ننتظرك أن تعود، لقد اعتدنا عليك.

غاب طاهر عَن المهجع وكل يوم ينتظرون عودته من المستشفى، يسألون عنه، وبعد عشرة أيامٍ، أخبرهم أحد حرّاس المهجع بموت طاهر إثر الجلطة الدماغية التي أصابته.

يومها أخذ إدريس الدفتر وقال للمساجين: عند خروجي من السجن، سأفعل كل ما بوسعي حتى أنفّذ وصية طاهر بطباعته.

علت غصّة إلى حنجرة إدريس وهو يحمل الدفتر بين يدَيه ويقلب صفحاته، استردَّت ذاكرته جدّية طاهر في الكلام، كان كل شيءٍ فيه يتفاعل مع ما يقول كما لو أنه يتحدَّث بأعضائه كلّها.

ذات مرة سأله عن سبب شروده العميق، فقال: تعلَّقتُ بالشرود يا إدريس، أحببته، صرتُ أوليه كل ثقتي، لأنه الوحيد الذي يبقى معي ولا يتخلّى عنّي عندما يتخلّى عني الجميع.

لم يسبق له أن تخلّى عَنّي، أو خذلني، دوماً يوجّهني ويرشدني إلى الصواب، يُنفّس عني كربي، يُفرّج عني غمّي، يكون أنيسي في ليالي الوحشة والاكتئاب.

ومع مرور السنوات، صار الشرود رشيدي، مؤازري، صديقي الوفي، لم يتركني وحدي يوماً واحداً حتى في أحلك الأزمات التي كانت تواجهني.

كم من مرة كنتُ في أسوأ ظروفي وكان الشرود يأتي وينقذني، لا يتركني حتى يطمئن عليّ، يُهدّئ من روعي، يجعل قلبي في حالة انتشاء.

شرودي هو حَكيمي، هو طبيبي، هو رفيقي الوفي، هو قوّتي وعزيمَتي، هو كل حياتي، لا يمكن لي أن أتخيَّل حياتي دونه.

ثم بعد قليلٍ من الصمت أردف يقول كما لو أنّه يحدّث نفسه: أشعر بأن كائِناً يقطن رأسي، يبقى مستيقظاً طوال الوقت، لا ينام البتة، لا يقربه فتور، يخبر كل شيءٍ عنّي، كل كبيرة وصغيرة. عندما أكون سعيداً يكون معي، عندما أكون تعيساً يكون معي، حتى عندما أنام أراه يحدّثني في الحلم، وأراني أستشيره في أدق تفاصيل حياتي وأكثرها حساسيَّة.

***

لا بدّ أن يفي بوعده له، لقد ترك لديه الدفتر أمانةً، وهو عصارة سنوات طويلة من العمل، كان أحياناً يقول بأنّه يعيش فقط من أجل هذا الدفتر الذي هو خلاصة عمره ووجوده في هذه الحياة، لقد خسر كل شيء في لحظة غباء، ويُريد أن يعوِّض كل خساراته من خلال ما يكتبه في الدفتر.

كان أحياناً يقرأ لهم فصولاً منه، ويستمع إلى آرائهم، وكان الحوار أحياناً يمتدّ بهم إلى ساعات متأخّرة من الليل، وكان البعض من جماعاتٍ أُخرى في المهجع ينضمّون إليهم، ويشاركونهم الحوار.

تذكَّر ما قاله طاهر ذات يوم: القوانين الوضعية هي اجتهاداتٌ تتَّفق عليها لجنة مُشكَّلة من اختصاصاتٍ مُختلفةٍ بحيث تكون متلائِمة ومُنسَجِمة مع طبيعة المُجتَمَع الذي تُنَصُّ له تلك القوانين، وهي تأخذ بعين الاعتبار تفرّعات هذه القوانين وعلاقتها بقوانين أخرى جارية في البِلاد ولا تتصادم أو تتناقَض معها، فهي منظومة يتكامَل بعضُها ببعض. وهذا مثل الدم، فليس كل دمٍ يصلح لكل شخص مهما كان بحاجةٍ إليه، فلا بدَّ من زمرةٍ دمويّة تتناسَب مع زمرة دم ذاك الجسم.

فهل طبيعة مجتمعنا تتقبَّل مثل هذا القانون الوضعي؟ أقول طبيعة، ولا أقول المجتَمَع، لأن المُجتَمَع شاءَ أم أبى، سوف يرضخ لأي قانون إذا أقرَّته السلطات القضائية في البِلاد.

ولذلك علينا أن نعلم بأننا عندما أخذنا هذا القانون، واعتمدناه في بِلادِنا، نكون قد اجتزأناه من منظومته في تلك البِلاد، وأقحمناه على قوانين بِلادنا كمادَّةٍ غريبة. ولذلك من الطبيعي جدّاً أن يجلب لنا كوارث اجتماعيَّة نحن بِغنى عَنها،

بل ليس من الطبيعي ألّا يجلب لنا كوارث اجتماعية نحن بغنى عنها.

الناس يَستمتعون بحياتهم ويُحسّنونها يوماً بعد يوم، ونحن نشقى في حياتنا، ونزيدها سوءاً يوماً بعد يوم.

وبعد هنيهةٍ من الصمت أردف يقول: قبل مجيء هذا القانون إلينا، كانت تحدث خلافات بين الزوجَين، وكان الزوج أحياناً في لحظات الغضب يُطلّق زوجته، لكن بعد مرور بعض الوقت، كان يعود إليها، لأن أحداً لم يكن يتدخَّل بينهما، أو يؤجّج أحدهما على الآخَر.

العلاقة الزوجية بين الزوجَين هي علاقة نقية كالماء الذي في النبع، قد تشوبه شائبة نتيجة قذف شيءٍ فيه، أو حتى نتيجة عاصفة، ولكن يعود النقاء إليه تلقائياً مع الوقت ومن تلقاء نفسه بشكلٍ طبيعي، أمّا إذا دخل شخصٌ في قعر النبع وتلاعب بالماء، فإنه يعكّره أكثر فأكثر، وكلّما تلاعب أكثر، عكّره أكثر.

معاذ

ذات مساءٍ وكان الحديث ساخِناً، فقال طاهر: يلجأ المرء إلى القتل عندما يشعر بأن القانون لا ينصفه، ولذلك رأينا حالات عديدة جاءتنا إلى هذا المهجع، وكان أصحابها قد ارتكبوا جرائمهم أمام أبواب المحاكم، وأحياناً داخلها، وهذه صرخة منهم بأن هذه المحاكم غير عادلة. مثل هذه الجرائم يا أصدقائي لا تحدث في محاكم العالم ولا أمام أبوابها، لأن تطبيق القانون يكون فيها دقيقاً ومنصفاً، تكمن المأساة عندما تتحوَّل المحكمة التي هي بيت القانون، إلى مكانٍ يُتجاوَز فيه على القانون.

عند ذاك أحسَّ معاذ بأن الكلام موجَّه إليه أيضاً، فهو قد قتل طليقته أمام باب المحكمة، حدث ذلك عندما نشب خلافٌ بينه وبين زوجته بسبب الحساء الذي كان شديد الملوحة، فقال بعد أن تناول الملعقة الأولى منه: ملحه زائد كثيراً، هكذا سيسبّب لنا ارتفاعاً في الضغط، في المرة القادمة، خفّفي الملح ما أمكن. فرفعت طبق الحساء من أمامه وأفرغته في المجلى قائلةً: هذا هو طعامي، إن لم يعجبك، اطبخ لنفسك. فقال: أنتِ قليلة الأدب.

قالت: ستعرف مَن هو قليل الأدب. وفوجئ بها تخرج من البيت مستنفرةً وتتقدّم بشكوى عليه إلى شرطة العنف الأُسَري بتهمة التسبّب في استفزازها، فلم يستطع أن يحتمل ذلك، لأنّها لم تعتبر له أيّ اعتبار عندما خرجت من البيت، ثم عندما شكَت عليه، وعندما جاءت الشرطة وأخذته من بين أولاده، طلَّقها على الفور وهو في مركز الشرطة وقال: هذا حقّكِ يا فلتانة. دون أن يعرف ما سيترتَّب على هذا الطلاق، وكان يعتقد بأن الأمر انتهى بينهما، لكنه بعد جلساتٍ عديدة عند القضاء، رأى نفسه خارج البيت ولم يعد من حقّه حتى أن يطرق باب بيته، لأن الأبناء أصبحوا في حضانة أمّهم، واستطاعَت أن تؤجّجهم عليه حتى غدوا يمقتونه، ويرفضون لقاءه، ثم اضطرّ أن يقترض قرضاً من المصرف على راتبه وكان يعمل حارساً أمام باب المستشفى الوطني، وأعطاه لها كتعويضٍ عن الطلاق التعسّفي كما قضت المحكمة، وصار عليه في بداية كل شهر أن يذهب إلى المحكمة ليدفع النفقة المترتبة عليه لها وللأولاد، فكان يشعر بالإهانة، كلّما ذهب وسدَّد مبلغ النفقة، كأنّه يرفض أن يرى أولاده ويلبّي لهم احتياجاتهم. واضطّر أن يستأجر بيتاً صغيراً يقيم فيه، ويشتري من جديد الأثاث ومستلزمات البيت.

كان عندما يذهب إلى دائرة النفقة ويرى النساء مطلّقات المحاكم اللواتي أتين كي يقبضن، يتخيَّلهن على شكل عقارب، كن يتوافدن إلى الدائرة كما لو أنَّهن أتين لقبض رواتبهن الطبيعية نتيجة دوامٍ قمن به، كان يشعر بأنَّهن ثلّة من المتطفّلات، والمحتالات، يبتزن الرجال الذين انفصلن عنهم، ومن جهةٍ أُخرى كان يرى بأن هذا القانون قد أظهر معادن هذه الثلّة الموبوءة من النساء، وأتاح لهن أن يظهرن حجم حقدهنّ، الأمر الذي جعل بعض الرجال يقفوا مواقف سلبيّة من عموم النساء، فمنذ أشهرٍ عدَّة وقع حادثٌ سير لباصٍ كان يقل مجموعة من النساء إلى أعمالهن، وأدّى الحادث إلى موت كل النساء اللواتي كن في الباص، وحينها سمع بأن بعض الرجال قالوا بأنَّهن أرحن الرجال من مكرهن.

***

بعد نحو ثمانية أشهرٍ من عدم رؤيته للأولاد، لم يعد معاذ يطيق الصبر وقد ضاق به الشوق لأولاده، فقرَّر أن يقف في الشارع حتى يخرجوا، فيراهم ويطفئ شوقه إليهم. لبث منتظراً في الشارع نحو أربع ساعات، فرأى طليقته وقد فتحت الباب وخرجت، وعندما وقعت أنظارها عليه، قال: اشتقتُ لأولادي، أريد أن أراهم ولو عَن بُعد لمدَّة خمس دقائق.

فتراجعت المرأة إلى الوراء وعادت إلى البيت، وظنَّ معاذ بأنّها ستجلبهم، انتظر واقِفاً في الشارع نحو نصف ساعة، وفوجئ بسيارة شرطة العنف الأُسَري وهي تُصدر دويّاً مرتفعاً، وفرملت على بُعد خطواتٍ منه، ونزل منها عدَّة عناصر وقد أشهروا مسدَّساتهم إليه قائلين له: ارفع يدَيك وإلّا أطلقنا عليك النار حالاً. فرفع يدَيه، تقدَّموا إليه بحذرٍ حتى وصلوه، وعلى الفور، أرموه أرضاً وأخذوا يفتّشونه ولم يعثروا لا على سلاحٍ أبيض، ولا على سلاحٍ أسود. فأخذوه إلى المركز، وبعد قليلٍ جاءت طليقته، وأفادت بأنّه كان يترصَّد خروج الأولاد في الشارع منذ عدَّة ساعات، حتى يتهجَّم عليهم ويقتلهم لأنَّهم يرفضون رؤيته.

وعندما أخبروها بأنّه لم يكن يحمل سلاحاً، قالت: كان سيخنقهم بيدَيه انتقاماً منّي.

قال: لم أعد أحتمل الشوق لأولادي، جئتُ حتى أراهم ولو في الشارع.

قالوا له: هذا الكلام تقوله للقاضي، نحن لا علاقة لنا، تلقَّينا بلاغاً في الهاتف من امرأة مطلَّقة تقول بأن زوجها السابق ينتظر في الشارع خروج أولاده منذ عدَّة ساعات كي يقتلهم انتقاماً منها، ولأنَّهم يرفضون رؤيته، فما كان علينا سوى أن

نأتي، وإذا رفضنا المجيء، كانت ستتقدَّم بشكوى علينا، وكنا سنلقى العقاب على عدم القيام بواجبنا.

لكن القاضي الذي استمع إفادته، أخلى سبيله بعد أن كتب تعهّداً بعدم الذهاب إلى ذاك الشارع الذي فيه بيته الذي يملكه، وفيه أولاده.

ومضت عدَّة أشهر على ذلك وهو يداوم في دفع النفقة كل شهرٍ لها وللأولاد، وذات يومٍ بينما كان يمشي في سوق المدينة، رأى ابنه المراهق (ديّوب) برفقة أحد الذين عُرِفوا بتعاطيهم للحبوب المخدّرة، وعندما رآه الابن، فرّ هارِباً لأن أمّه كانت قد رسَّخت لديه فكرة أن أباه يبحث عنه حتى يخطفه، ويقتله ببطء كي يحرق قلبها عليه، وحذّرته من التحدّث معه إذا رآه مصادفةً.

كان الفتى يهرب في الشارع وهو يصرخ: سوف يقتلني.. سوف يقتلني.. وهو يجري خلفه مسرعاً حتى أمسك به. وقال له: مَن قال لك بأنّني سوف أقتلك؟

قال: أمّي.. أرجوك يا أبي دعني ولا تقتلني وأعدك بأنّني سأقطع علاقتي مع هذا الشخص.

احتضنه وقال: يا بني.. انزع هذه الفكرة من رأسك، منذ سنة وأن أبذل كل جهودي حتى أراك وأرى أخوتك، ولكنّني لا

أستطيع، وقد سُجِنتُ عدّة مرّات بسبب ذلك، وكل شهر أرسل لك ولأخوتك مصروفكم.

فقال: تقول أمّي بأنك قاطعتنا ولم تعد تنفق علينا، وأن جدّي وأخوالي هم الذين ينفقون علينا. ثم قذف نفسه في حضنه وقال: أرجوك يا أبي دعني أذهب إلى البيت، إذا علمتْ أمّي بأنّني التقيتك وتحدَّثتُ معك، سوف تقتلني وتدَّعي بأنني احترقت نتيجة حريق نشب في البيت، هكذا قالت لي.

قال: لا تُخبرها وبين فترةٍ وأُخرى سوف نلتقي دون أن تعلم بذلك.

قال: حاضر يا أبي.

وفي ذلك الوقت كان صديقه المدمن قد ذهب وأخبر أمّه بِما حدث، فما كان من الأم إلّا أن هرعت إلى شرطة العنف الأُسَري، وادَّعت بأن أبا الولد قد خطفه من السوق بالقوة، وهو في حضانتها.

وفي اليوم التالي، تلقّى معاذ اتّصالاً من مركز شرطة العنف الأُسَري كي يحضر بسبب شكوى تقدَّمت بها طليقته، فأقفل الهاتف ولم يردّ، وبعد أسبوعٍ على ذلك جاءت دوريّة من الشرطة إلى مقرّ عمله في المستشفى وأخذته إلى المركز، وبعد نحو ساعتَين من وجوده في غرفة التوقيف، أخرجه شرطيٌّ واتَّجه به إلى رئيس المركز، فرأى طليقته هناك مع

ابنه ديّوب الذي كان الذعر بادياً على وجهه، وأفاد وهو يبكي بأن أباه رآه في السوق، فتهجَّم عليه وأراد أن يأخذه بالقوة ولا يُعيده إلى أمّه.

وكتبت الشرطة إفاداتهم وأخذتهم إلى المحكمة، فقرّر القاضي توقيفه هذه المرة لمدّة عشرة أيام، ثم أخرجه بكفالة، وكتابة تعهّد آخَر بعدم التعرّض لأبنائه في حال رؤيتهم في الطريق، ريثما يحين موعد جلسة الحكم.

وبعد نحو شهرين من ذلك، تلقى معاذ اتّصالاً من المحكمة تُخبره بالموعد، عند ذاك قال: (على نفسها جَنَت براقش). ثم حمل سكيناً وذهب قبل الموعد بنحو ساعة، انتظر بجانب باب المحكمة حتى جاءت طليقته، وكانت ترتدي ثوباً من قماش الدانتيل المخرّم، فانقضّ عليها على الفور ووقع عليها بالطعنات.

أردف طاهر يقول: في هذا القانون تزول سيادة الرجل على عائِلته، وهو لا يستطيع أن يستخدم سيادته لضبط العائلة، فكان من الطبيعي أن يحصل التفتّت العائِلي وتزداد حالات الطلاق. فلا حل إمّا أن يمنع الأب بنفوذه أحد أفراد عائلته إذا تمرَّد، أو يدعه كيفما شاء. فإن غضب وعاتب أحد أفراد عائلته إذا أخطأ، سوف يتعرَّض للسجن بتهمة التهديد، فكان الترك

أفضل الحلول لدى بعض الحكماء من المجتمع، تاركاً عائلته تنهار أمام عينَيه دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً.

لكن البعض الآخر، ينفعل ولا يقبل أن تَترِكَ فتاةٌ في مقتبل العمر البيت بسبب خلافٍ بينها وبين أحد أفراد أسرتها، لأن المنظومة الاجتماعيّة لا تقبل هذا التمادي وتعتبره عاراً، فلجأ إلى التصفيات بطرقٍ مختلفة والادّعاء بأن هذه المرأة انتحرَت، أو وُجِدَت مقتولة في مكانٍ ما. فيكون قد تخلَّص من المرأة التي يعتبرها موبوءة بالعار، وكذلك نجا مِن العقوبة التي ينصّها هذا القانون.

واستطاعَ هذا القانون أن يُخرج العائِلة من سيطَرَة الأب عليها، ولكن ذلك لم يُترَك دون ردود أفعال سواء بين الأب وعائِلته، أوبين عائلتَي الأب والأم.

أجاز هذا القانون للزوجة أن تَخرج عَن طَوع زوجها وتتمادى عليه، وأجاز للأبناء أن يَخرجوا عن طَوع أبوَيهم ويتمادوا عليهما.

نعم ليسَت كل امرأة تفعل ذلك حتى لو أُتيحَ لها، وليس كل الأبناء يفعلوا ذلك حتى لو أُتيح لهم، ولكن مع الوَقت وظهور بعض الخِلافات، أو استفحالها، سوف يحدث اللجوء إلى هذا القانون، وتنهار أركان العائِلة، ويتشَرَّد الأبناء، ويتحوَّلون إلى لصوص، أو إلى منحرفين، لأنَّنا اجتزأنا هذا القانون من

منظومته ومن بيئته، ولا نعطي الرواتب للعاطلين عن العمل من مواطنينا، أو للمقيمين العاطلين عن العمل في بلادِنا، ولا نفتتح مصحّاتٍ لرعاية الأبناء وتعليمهم حتى المراحل الجامعية والتخرّج. وهذا يشمل تداول السلطات، وحرية الإعلام، وضبط الموارد، وسيادَة القانون، وتعيين الأشخاص في المناصب المناسبة لكفاءاتهم.

في بلاد هذا القانون، إذا أوقفوا شخصاً بسبب اعتدائِه على زوجته بعد التحقّق تماماً وجمع الأدلّة الدامغة، لنفرض شهرين أو ستة شهور، سوف يعطون الرواتب لأفراد عائلته لأنّهم يكونوا قد سَجنوا مُعيلَهم. أمّا نحن فقد وجدنا أنفسنا فجأةً أمام آلاف العائِلات التي أصبح معيلوها في السجون، وانقطعت عنها مصادر رزقها، لأن رجلاً قد صفع زوجته صفعةً، أو صفعتَين بسبب خلافٍ نشب بينهما، أو نرى أطفالاً قد تشرَّدوا ولبثوا دون معيل، لأن الأب قتل الأم بسبب التدخّلات السافرة لهذه الشرطة في صلب علاقته العائلية، وأودع في السجن.

فبعض الأنواع مِن الأدوية، لا يمكن استخدامها إلّا مع أدويةٍ أُخرى متلازمة لها، لأنَّها دون استخدام أدوية أُخرى سوف تتسبَّب في نشوء أمراض، مثل أن تشفي تسارع خفقات القلب،

ولكنّها تحدث قرحةً للمَعِدة، فلا بدَّ من استخدام دواء آخَر برفقة هذا الدواء لحماية المَعِدة.

في ظل هذا القانون، لا كبير لأحدٍ من أفراد العائِلة، وكل واحدٍ صغيراً كانَ أو كبيراً، فهو كبير نفسه يفعل ما يشاء، دون أن يستطيع أحد من العائلة منعه، لأنَّه بمجرَّد اتَّصالٍ بَسيطٍ، تحضر دوريَّة من الشرطة وتعتقل الذي يُزعِجه كائناً مَن كان.

حمية الحريّة

استرسل طاهر يقول وهم يستمعون إليه بصمتٍ: منذ عدَّة سنوات كنّا في السجن، فجاء رجلٌ اسمه (طلال)، قال بأنّه رأى ابنته المراهقة مع شخصٍ في الشارع، وعندما ناداها، ضحكت باستهزاءٍ ولم تردّ عليه، لأنّها كانت تعيش في حضانة أمّها، وكانت قد مضت سنة على عدم تمكّنه من رؤيتها. فتقدَّم إليها وأمسك بيدِها، ولكن الشاب دفعه عنها، وقال: اذهب فنحن نعيش زمن قانون العنف الأُسَري، أم أنَّك نسيت؟ وحصل بينهما شجارٌ، ووجّه صفعةً قويَّةً إلى ذاك الشاب الذي تراجع خلفاً عدّة خطوات، ثم استدار هارباً.

وفي المساء جاءته دورية من شرطة العنف الأُسَري واعتقلته لأن أمّها قدَّمت شكوى بأنّه تهجَّم على ابنتها في الشارع وأراد أن يخطفها من حضانتها لها لولا أن أحد الأشخاص منعه من ذلك.

فتوقَّف الرجل شهراً في السجن، وعندما خرج، رأى بأنّه لم يعد قادراً على تربية ابنته، بل ترفض حتى أن تراه، أو تعترف به كأب عندما يراها في شارعٍ ما، مستقوية بهذا القانون، ويظهر بأنه لم يستطع أن ينسجم مع هذا الواقع، بل أن بعض أخوته غدوا يعيرونه نتيجة تمرّد ابنته عليه، فانتظر عند ناصية

الشارع خروج أمّها من البيت، وعندما خرجت، وخطت عدَّة خطوات، هرع إليها وأطلق عليها النار في الشارع، وعاد إلينا في السجن.

على هذا النحو يا أصدقائي، فإن هذا القانون تسبَّب بالعنف ضد المرأة، وجعل المرأة تلقى عنفاً كانت بِغنى عنه. وقد وصل الأمر ببعض نسائِنا بأن عنَّفنَ أنفسهن حتى يتَّهمن الأزواج بذلك. فنرى عناصر شرطة العنف الأُسَري يتبخترون كما لو أنّهم ديوك حَبَشية، يطرقون على الناس أبواب بيوتهم، يجيزون لأنفسهم أن يقتحموا ذاك الميثاق الغليظ الذي يكون بين المرأة والرجل والذي بُنيت على أساسه أركان عائلتهما، لمجرَّد أن امرأةً في لحظة غضب أجرت اتّصالاً بهم، فيتعاملون مع هذا الأب والزوج كما لو أنّه إرهابي خطير.

عندما استغنَت المرأة عن الرجل، ورأت حماية القانون لها في حرّيَّة التصرّف، تمرَّدَت على زوجِها، واقتُلِعَت مِن جَذرِها، وصارَت تتبرَّأ مِن المنظومة الاجتماعية السائِدة، وقد غيَّرَت نفسها في كل شيء، من مفهومها للزواج، إلى الثياب، إلى العِلاقات غير المُنضَبِطة مع الناس، إلى نمط تربية الأولاد لكونها تحتفظ بِهم عند الانفصال عن الزوج، ولم يعد الزوج قادِراً حتى أن يطرق باب بيته، أو يرى أولاده لأن الأم تكون قد هدَّدَتهم بالابتعاد عنه، وعدم التواصل معه حتى بالهاتف

وذلك خوفاً من أن يلتقيهم ويجعلهم يميلون إليه ويتركون أمَّهم.

وحتى لو طلبت منهم الشرطة أن يلتقوا بأبيهم، فيرفضون ذلك استجابةً لتعليمات أمّهم، ولا يستمر ذلك طويلاً، فبعد مدَّة تكون الأم شبعت من ممارسة الحريَّة واكتشفت حجم الخسارات التي مُنيت بِها على كل الصعد النفسية، والتربوية، والأخلاقية، والدينيّة، اكتشفت كم أنَّها لوَّثَت نفسها. لماذا؟ لأنَّها في الحقيقة لم تكن تُمارس الحريَّة الطبيعيَّة، بل كانَت مُنفَلِتة وتعيش تحت سطوة حمية الحريَّة التي رأت نفسها فيها فجأةً، فمرَّغت نفسها كيفما شاءت دون ضابط، ودون أن تُدقّق فيما تفعل، لأنَّها كانت تدور في فلك الحُمَّى، وحتى أهلها لم يستطيعوا منعها، فالذي يمنعها بالقوَّة يتعرَّض للسجن، ولم يبق إمّا أن يسكتوا على ما تتمادى فيه، أو يقتلوها.

وما علِمته أن هذه المرأة تنتهي نهاية مأساوية بطرقٍ مختلفة على الصَعيدَين النفسي والبَدَني، وتتحوَّل إلى علامة عار وسيِّئة الذِكر.

صمت طاهر، واستمرَّ به الصمت نحو خمس دقائق، ثم قال:

المرأة الذكية، تسعى ما أمكنها حتى ترفع من مستوى قوامة الرجل عليها كي تشعر نفسياً بأنها تعيش مع رجلٍ قويم،

وتستمدّ من ذلك انضباطها، واحترامها في المجتمع، حتى لو كان الرجل سفيهاً. والمرأة الغبية تسعى ما أمكنها حتى تحطّ من قوامة الرجل عليها، وعندما يفقد الرجل قوامته في نظرها، تنفلت وتجنح شطر الانحراف، وتبدأ باستخدام الغباء بذكاء تارةً، والذكاء بغباء تارةً، وتدمر نفسها بنفسها بشكلٍ تدريجي.

منام الشاهد

ذات يومٍ وكانت قد مضت خمس سنواتٍ على دخول إدريس السجن، فوجئ بدخول أبٍ وأحد أبنائه الشبّان إلى المهجع، قال الأب الذي بدا محتقناً بأن زوج ابنته أخبرهم بأنّها سقطت من فوق السطح، وعندما نقلها إلى المستشفى، ماتت هناك متأثّرةً بما نجم عن السقوط. لكن بعد أسبوعٍ على ذلك، قال أحد الجوار، وكان من مربّي الحَمام، بأنّه رأى بأُم عينَيه بأن الرجل دفع زوجته دفعاً بالقوّة حتى أسقطها من السطح إلى الأرض، حصل ذلك عندما صعد إلى سطح بيته كي يتفقّد الحَمام، وفجأةً وقعت عيناه على الرجل وهو يدفع زوجته بقوّة من السطح إلى الأرض، وقد أخفى ما رأى، لكنه رأى المرأة في المنام وقالت له بأنها لن تسامحه إذا سكت عن قول الحق، وأنه سيكون شريكاً لزوجها إذا لم ينطق بشهادته كاملةً، وسوف تحاكمهما معاً عند الله. وأنّه عندما استفاق من النوم صباحاً، اتجه على الفور إلى مركز الشرطة وأدلى بإفادته.

عند ذاك أُلقي القبض على الزوج الذي أنكر ذلك، وقال بأن ذاك الشخص ربما رأى ما أفاد به في الحلم، والتبس عليه الأمر، لكن الشرطة ضغطت عليه حتى اعترف بالحقيقة وقال بأنه فعل ذلك لأنه كان يريد أن يتزوَّج، وعندما أخبرها برغبته، قالت

له بأنّها سوف تتقدَّم بشكوى عليه، والقانون الجديد لا يسمح بالزواج من امرأتين، وعندها سوف يُخيّر بين أن يُسجَن أو يُطلّق إحداهن. ثم قالت له: سواء طلّقتها، أو طلَّقتني، لن أدعك.

قال: كيف؟

وضعت يديها حول خاصرتيها وقالت: إذا طلَّقتني، سوف أبقى في البيت لأن الأولاد يكونون في حضانتي، وسوف تدفع لي النفقة، ولن يكون بوسعك أن تدخل هذا البيت حتى انتهاء فترة الحضانة، وسوف أُؤَجّج الأولاد عليك، وأقطع صلة رحمك بهم. أمّا إذا طلَّقتها، أيضاً لن أسكت، وسأبقى أستفزّك وأتقدم بالشكاوى عليك حتى تُطلّقني وأفعل بك ما أريد، لذلك اجلس على ذيلك يا رعاك الله، أفضل لك ولي، ولا تنس بأننا نعيش في ظل قانون العنف الأُسَري، ومجرّد اتّصال بسيط منّي بهم، سيأتون بعد دقائق معدودة ويَسحبونك من البيت سَحباً.

عندها أفاد للشرطة بأنّه خطّط لقتلها حتى جاء ذاك اليوم الذي صعد فيه إلى السطح، وقال بأنه سوف يفتح مجرى المزراب حتى لا تتراكم مياه الأمطار على السطح، وبعد قليلٍ ناداها، وعندما اعتلت السطح معه، دنا بها إلى فتحة المزراب

الواقعة في حافّة السطح، ودفع بِها فجأةً بكل ما أوتي من قوة وأسقطها أرضاً.

قال الأب: عندما سمعنا بالحقيقة، فار الدم في عروقنا، ولأنه كان في السجن، تهجَّمنا أنا وابني على بيت أحد أخوته وقتلناه ثأراً لابنتنا.

حينها أشار معاذ رئيس المهجع للمساجين، فالتمّوا عليهما وغدوا يُسدّدون عليهما الضربات الموجعة.

الفصل السادس

فرصة الصفر

هل يمكن أن يعثر المرء مجدّداً على بديلٍ للمرأة العظيمة التي دخلت حياته؟ المرأة التي عاش معها أجمل سنتَين في حياته؟ هل يمكن أن يؤسّس لحياةٍ جديدة؟ أن يبدأ كما قال فاتح، جار خطيب، من الصفر؟ أجل فعندما يجد المرء الصفر كي يبدأ منه، فذلك أيضاً نعمة، لأنه كان يمكن ألّا يجد حتى هذا الصفر ليؤسّس عليه حياته مُجدَّداً.

في المساء، حمل مخطوطة كتاب طاهر وشرع يقرأ.. يقرأ.. أذهلته الأفكار التي كتبها طاهر.

كان يكتب بعمق وهو يُفرّغ كل مشاعره في الكتابة، يتحدَّث عن مفهومه للحياة، عن العلاقة بين الإنسان والحياة، والموت، بينه وبين المرأة، عن أفكارٍ سوداويّة، أفكار مشرقة. استمرَّ إدريس في القراءة من غير أن يشعر بمرور الوقت: يا إلهي كيف لصاحب كل هذه المشاعر الجيّاشة، هذه العبارات المدهشة أن يودّع الحياة ويموت؟ كم كان ممتلئاً بالحياة، بالحب، برهافة المشاعر. خطر له أن يقدّم نسخةً من الكتاب

بعد الطباعة إلى ابنته كي تقرأ كل هذا العالَم الذي كان طاهر يعيشه في داخله.

لبث يقرأ بشوقٍ حتى بلغ الصفحة الأخيرة، حينها أدرك بأن الوقت غدا صباحاً، لم يشعر بنعاسٍ أو إرهاق. نهض من الأريكة التي كان جالساً عليها، رشق وجهه بعدة رشقات من الماء، ارتدى ثيابه، تأبَّط مخطوطة الكتاب وخرج، اتَّجه على الفور إلى صديقه (فرحان) بائع الكتب المستعملة، لعلّه يرشده إلى دار نشرٍ جيّدة يطبع فيها الكِتاب. عند وصوله إلى المكان، لم ير صديقه، نظر حوله، وتأكّد بأنّه نفس الرصيف الذي كان قد فرش الكتب عليه، وعندما رأى صندوقاً حديديّاً على الرصيف، تأكّد أكثر، فهو الصندوق الذي يضع فيه الكتب عندما ينتهي من العمل ويعود إلى البيت. وبينما هو واقفٌ على الرَّصيف يفكّر أن يسأل أحد أصحاب المحال المجاورة عنه، تراءى له فرحان وهو يمشي بانتظامٍ على الرَّصيف باتّجاه الصندوق، وعندما وصل إليه، قال: أهلاً وسهلاً صديقي إدريس.. ماذا تفعل في هذا الصباح هنا؟

قال: جئتُ حتى أراك يا صديقي، ثم شرح له قصّة المخطوطة، وسأله إن كان يعرف دار نشرٍ يمكن أن تطبعها؟

فقال فرحان بأنّه يعرف ناشراً في العاصمة، منشوراته واسعة الانتشار، ويُشارك في معارض كثيرة للكتب، داخل البلاد

وخارجها، ثم أضاف يقول: وأنا مستعدٌّ أن أذهب معك، والحقيقة يا إدريس فقد شوَّقتني لقراءة هذا الكِتاب.

وعند ذاك، لم يفتح فرحان الصندوق، واتَّجها معاً إلى الكراج، ومنه انطلقا إلى العاصمة.

وهما يجلسان في الباص جنباً إلى جنب في مقعدٍ مجوز، قال إدريس: أشياء كثيرة تغيَّرت خلال سنوات سجني، لم يقتصر التغيير على شكل المدينة فحسب، بل على طبيعة الناس.

قال فرحان: هي مدينة من حيث الاسم، ولكنها لا تمت إلى معنى المدينة من حيث الجوهر. خلال هذه السنوات التي عشتها في السجن، توافدت أعداد هائلة من سكّان القُرى إلى المدينة واشتروا فيها بيوتاً وتركوا قراهم، وبسبب هذه الكثرة العجيبة، لم تستطع المدينة أن تُغيّرهم ليُصبحوا مدنيين كسكّان المدينة الأصلاء، بل حصل العكس، واستطاعوا أن يحوَّلوا المدينة إلى قرية كبيرةٍ لهم، والدولة كلها بكافة مدنها بما في ذلك العاصمة، إلى بادية كبيرة، وصاروا يُمارسون نفس العادات والطقوس التي كانوا يُمارسونها في البادية، ولأنّ نسبتهم فاقت بكثير نسبة المدنيين، فقد استطاعوا أن يؤثّروا على كثيرٍ من سكان المدينة الأصلاء بهذه العادات والتقاليد القرويّة من خلال بعض علاقات المصاهرة، وبعض الأعمال، والعلاقات الاجتماعية، والجيرة.. فصار المدني قروياً، بدل أن

يصير القروي مدنياً، وأصبح الناس يميلون بانتماءاتهم إلى العشائر، وكثر بيننا رؤساء هذه العشائر الوافدة من عمق البادية. ثم ألقى نظرة من خلف زجاج الباص الذي يمضي في كبد الطريق، وقال: هذه هي مأساتنا يا صديقي، وما زاد الطين بلّة أن السلطات أقحمتْ علينا بعض القوانين الحديثة المتنافرة والمتناقضة تماماً مع طبيعة مجتمع البادية في بلادنا، مثل قانون الأسرة، فتسبّب ذلك في تفاقم الجرائم المروعة وتفشّي العداوة بين هؤلاء البدو وهم يعيشون في هذه الدولة التي أحالوها إلى بادية كبيرة.

ظاهرة مرهج

بعد قليلٍ زفر فرحان زفرةً طويلة وقال: هذه الشرطة التي لا أعرف من أين أتوا لنا بها، هي أسوأ من السرطان الذي بات يسري في جسد مجتمعنا الآمن، مهمّتها سحب القِوامة من الرجل، والإساءة إلى هيبته في البيت، وتفتيت العائلات، وقتل النساء، وإلقاء الرجال في السجون.

في السنة الماضية، فوجئنا بظاهرة غريبة في المدينة.

نظر إدريس إلى وجهه الحزين وهو يتحدَّث، فقال: ظاهرة قنص النساء سواء في شرفات بيوتهن، أو في الشوارع، ولم يكن أحد يعلم مَن الذي يفعل ذلك، بُثَّ الذعر بين النساء، وبقينَ في بيوتهن، والعاملات منهن توقَّفن عَن العمل. واستمرَّ ذلك أربعة أشهر، ولم نعد نرى امرأة واحدة في شوارع المدينة كلّها، ولم يكن بوسع أحدٍ أن يرى امرأةً على شرفة بيت، بل لم نكن نسمع صوتاً لامرأة من أحد البيوت ونحن نمرّ في شوارع الأحياء الشعبيّة، وامتنعت النساء عن قيادة السيّارات، بل عن ركوب السيّارات، بعد حالات قنص عديدة على بعض النساء وهنّ يقدن سيّاراتهن، أو وهنّ يركبن السيّارات، وكذلك امتنعت النساء عن فتح أبواب بيوتهنّ خوفاً ورعباً من تلقّي رصاصة وهنّ يفتحن، ولم تكن امرأة تفتح باباً مهما توالى الطرق عليه،

فكان الرجل هو الذي يفتح الباب عند الطرق عليه، وصار كل رجل من البيت سواء أكان كبيراً أو صغيراً يحمل مفتاحاً للبيت معه عندما يخرج، كي يفتحه دون أن يطرق الباب عندما يعود في حال بقاء المرأة لوحدها في البيت. وكانت شرطة العنف الأُسَري أيضاً قد توقَّفت عن عملها، لأنَّها لم تكن تتلقّى اتّصالاً من امرأة، أمّا إذا كانت المرأة تتعرَّض للمرض، فكنّا نجلب الأطبّاء إلى بيوتنا لعلاجها خوفاً من تلقّيها رصاصةً أمام باب البيت، أو أمام عيادة الطبيب. ويُقال بأن بعض الرجال كانوا يرونه وهو يقوم بالقنص بمسدّسه الكاتم للصوت، ولكنهم كانوا يتغاضون النظر عنه، وكان بعض الرجال يزوّدونه بمبالغ مالية بطرقٍ غير مباشرة، حتى لا يشي بهم إذا أُلقي القبض عليه.

وبعد الأشهر الأربعة على ذلك، ووصول الإحصاءات الرسميّة إلى نحو ألف امرأة قضين نتيجة القنص، استطاعت فرقة من قوات النخبة التي حضرت من العاصمة أن تلقي القبض على القنّاص الذي كان يُدعى (مرهج)، وكان رجلاً في الخامسة والعشرين من عمره، ولم يسبق لأحدٍ أن شكا منه قبل تحوّله إلى قنّاص، ولكن كانت تحصل خلافات بينه وبين زوجته، وكانت تشكوه عند شرطة العنف الأُسَري، فيُسجن لأيّامٍ عدَّة، ثم يخرج، وبعد نحو شهرٍ من آخر مرة سُجنَ فيها، أقدم على قتل زوجته، واختفى تاركاً أولاده في بيت أبوَيه. وبعد

الإعلان عن إلقاء القبض على مرهج، عاد كل شيءٍ إلى ما كان عليه بشكلٍ تدريجي.

تحرّش مضاض

بعد قليلٍ حكَّ فرحان جبهته بخنصره وأضاف يقول: أمرٌ آخَر تمخَّض عن هذا القانون الجديد يا صديقي بغيابك، وهو تحرّش بعض النساء بضيوفهن، وقد حصلت حالات كثيرة، مثل أن يذهب شخصٌ لزيارة أحد معارفه، ولا يكون موجوداً في البيت، فتدَّعي المرأة بأنّه موجود، وتدعوه للدخول، وبعد أن يدخل، تتهجَّم عليه وتخدشه، ثم تتّصل بشرطة العنف الأُسَري وتدَّعي بأنّه حاول اغتصابها حتى تبتزَّه وتأخذ منه أموالاً نظير إسقاط دعواها عنه. ويحصل أيضاً بأن امرأةً تقف أمام باب بيتها، وتبدي بعض الحركات لأحد الشبّان من جوارها وتستدرجه للدخول إلى البيت، ثم تبلغ الشرطة بأنّه تهجَّم عليها وحاول أن يغتصبها حتى تبتزّ أهله وتحصل منهم على أموالٍ طائلة نظير إسقاط دعواها، وإن لم يلبّوا لها مطلبها، فإنّ ابنهم سيلقى السجن نحو سنتَين كما حصل لابن أحد معارفي، فباع المسكين بيته وأقام في بيتٍ بالأجرة، وأعطى ثمنه للمرأة المدَّعية إنقاذا لمستقبل ابنه الذي كان طالباً في البكالوريا.

قال إدريس: لاحظتُ أن المدينة تكاد تخلو من النساء مقارنةً بِما كان قبل عشرين سنة عند خروجي منها.

قال: ليس في هذه المدينة فقط يا إدريس، بل في كل مدن البلاد، تقول التقارير بأن نسبة قتل النساء في السنة الماضية فقط، وصل إلى ما يزيد عن عشرين ألف امرأة، وبعض هذه الجرائم تكون تحت ذرائع الانتحار، إضافة إلى خمسة عشر ألف رجل، قُتِلوا نتيجة خلافات عائلية، لأن قتل رجلٍ من هذا الطرف، يؤدّي إلى قتل رجلٍ من الطرف الآخَر، وأحياناً يكون القتل من كل طرفٍ أكثر من رجلٍ واحد، وأذكر أنّه في إحدى حوادث الخلافات العائلية قُتل من كل طرف خمسة رجال. حالياً هناك نحو مليون طفل في بلادنا هم ضحايا الطلاق الذي ما كان ليقع لولا إقحام هذا القانون على مجتمعنا، هؤلاء الأطفال يعيشون كيتامى وهم غير يتامى. ثم صمتَ قليلاً وقال بأسى: كثرت جرائم القتل بشكلٍ مرعب، صار الحكيم في وقتنا هذا، هو ذاك الذي يعيش بسلامٍ وينأى بنفسه من أن يَقتل، أو يُقتَل.

***

عند وصول الباص إلى العاصمة، خفق قلب إدريس خفقات شوق، بدت العاصمة سحريّة له وهو ينزل من الباص، ويمشي في الطرقات برفقة صديقه، يمشي وهو يشعر بأنّه يشمّ رائحة ابنته، ابنته التي تربَّت هنا، مشت في هذه الشوارع التي يمشي فيها الآن، رأت كل هذه المحال والأماكن التي ينظر إليها الآن.

لم يشأ أن يتَّصل بها ويخبرها بوجوده في العاصمة. كانت الشوارع مزدحمة بالناس بأشكالهم وألوانهم، وكانت سيّارات الأجرة ممتلئة بالرّكاب وهما يمشيان ويشيران إلى السيّارات التي لا تقف. وبعد زهاء نصف ساعةٍ من مشيهما في الطرقات، توقَّفت سيّارة بمحاذاتهما عندما أشار لها فرحان بالوقوف. فركبا وطلب فرحان من السائق أن يوصلهما إلى الدار. ومرَّة أُخرى طفق إدريس ينظر من خلف زجاج نافذة السيّارة إلى قامات الناس، لعلَّ نظراته تقع على ابنته، أو على هناء.

عندما نزلا من السيّارة، قال إدريس وهما أمام مدخل باب الدار: لا تهمّني تكلفة الكتاب يا فرحان، المهمّ أن تستطيع هذه الدار أن توصله إلى القرّاء بشكلٍ جيّد.

قال فرحان: هذا الناشر أعرفه جيّداً يا صديقي، إنّه شخصٌ مثقَّف وصاحب رؤية ثقافية، وليس تاجراً، تعرَّفتُ عليه عندما شارك في إحدى معارض الكتب في مدينتنا، وصار كلّما يأتي للمشاركة في معرضٍ، ألتقي به وأدعو بعض أصدقائي من المثقَّفين ومحبّي الكتب، ونسهر سهرة طويلة في بيتي. ثم أردف يقول: من جهتي، سوف أشتري مسبقاً مئة نسخةٍ من الكتاب وأبيعه وأروِّج له بين الأصدقاء.

دخلا إلى الدار وكان الناشر موجوداً، فرحَّب بهما، وتعاقد إدريس معه على الطباعة والتكلفة بحيث تكون الطباعة أنيقة،

تتناسب مع الأفكار التي يتضمَّنها الكِتاب. وعندما انتهيا من ذلك، لم يدعهما الناشر أن ينصرفا، فطلب من المطعم طعاماً، تناولوه في مكتبه معاً، ثم ودَّعاه ورجعاً إلى المدينة.

عند وصول إدريس إلى البيت، أحسّ بارتياح لأنه أوفى بوعده لطاهر، وقد أخبره صاحب دار النشر بأنّه عند الاتمام من الطباعة، سوف يرسل له مائة نسخة منه وهي من استحقاق المؤلّف. تخيَّل بأنه سوف يهدي نسخاً إلى بعض أصدقائه القدامى، يذهب إلى السجن، يهدي نسخاً لبعض الأصدقاء السجناء الذين ما يزالون في السجن، يهدي نسخاً إلى أهل وأقرباء طاهر. وخطر له وهو يستلقي على السرير كي يرتاح من عناء السفر، كم أن الحياة تمضي بسرعة، كم أن المرء بمقدوره أن يحقّق الكثير من المنجزات.

***

حلّ يوم الخميس المنتَظَر، كما لو أنّه ليس هو الذي كان بانتظاره، كما لو أنّه ليس هو الذي كان يعدّ الأيام، بل الساعات، وأحياناً الدقائق كي يحل صباح هذا اليوم المجيد، وتهلّ عليه ابنته في زيارتها الثانية.

في السادسة صباحاً نهض، انتبه بأن المطر يصفع زجاج النافذة بقوَّة، تقدَّم إلى النافذة، كانت السماء مكسوّة بغيومٍ داكنة، والمطر ينهال كوابلٍ من الرصاص، حلق ذقنه، فرَّشَ

أسنانه، استحمّ، رتَّب البيت، ارتدى البدلة الجديدة التي ابتاعها، شغّل منوعات فيروزية من هاتفه الجوال المتصل بالإنترنت، أحسّ بحيويّةٍ تدبّ في أوصاله. صنع فنجاناً من القهوة، وجلس يحتسي رشفاتٍ منها.

خطر في باله في تلك اللحظات، بأن مَن لديه ابنة في هذا العالَم، يكون كمن لديه كل شيء، ومَن ليست لديه ابنة، يكون كمن ليس لديه أيّ شيء. أدرك كم أنه محظوظٌ وكم أنه مَدينٌ لهناء، لأنها أنجبت له هذه الابنة، بل ربَّتها وحافظَت عليها وحَمَتها يوماً بعد يوم.

هذه الابنة التي تجعله يشعر بحضوره في الحياة، بل بأهميّة حضوره من أجل أن يكون معها وتكون معه، من أجل أن يتواصل معها وتتواصل معه، ثم من أجل أن تنجب له أحفاداً وتأتيه وهي حاملةً أحفاده، يذهب إليها في بيتها الزوجي كي يرى أحفاده، ويشعر بأنّه مترسّخ في الحياة، أنّه بصمة في الحياة، أنّه كائنٌ اجتماعيٌّ فيها.

تناهى إلى سمعه رنين الباب، وما لبث أن انفتح إثر طقَّةٍ وهو جالسٌ على الأريكة وقد استسلم للشرود. أدرك في تلك اللحظات بأنَّها جاءت، لأنّه لدى خروجها في الأسبوع الماضي، أعطاها نسخةً من مفتاح الباب.

انتبه بأن الساعة كانت قد بلغت التاسعة والنصف، وأنه أمضى وقتاً طويلاً في الشرود بها وقد نسي نفسه: بابا.. تناهى صوتُها عذباً إلى سمعه، ثم ما لبثت أن أردفت: معي ضيفة..

أحسّ بإرباكٍ على قدر ما أحسَّ بسعادةٍ، وخرج من الغرفة التي كان جالِساً فيها متَّجهاً شطر باب البيت، فرآها داخلة وبرفقتها فتاةٌ بدت في ثلاثينيّات العُمر، متوسّطة القامة، مستديرة الوجه، ذات عينَين لوزيتَين، وكانتا ترتديان معطفَين واقيَين من المطر، وترتجفان من البرد. قالت ابنته وهي تُقدّمها: هذه جارتنا (آمال)، صديقة عزيزة لي ولأمّي، نحبّها كثيراً يا أبي وتحبّنا، عندما أخبرناها بعودتك، أرادت أن تأتي معي كي تسلّم عليك.

قال: يا بنتي كان يمكن لكِ أن تؤجّلي الزيارة ريثما يتوقَّف المطر، كنتُ قلقاً عليك، الطقس شديد البرودة، والمطر غزير.

قالت: كنتُ أعدّ الأيّام والساعات حتى حلَّ هذا اليوم، كنتُ سأجيء حتى لو هبَّت عاصفة. ثم خلعتا المعطفَين المبلَّلَين بالمطر، فرحَّب بآمال، وقال بأنّه تشرَّف بمعرفتها، جلست آمال على أريكةٍ، فجلس قبالتها، راوده شعورٌ بارتياحٍ غريبٍ وهو ينظر إليها، كأنّه على معرفة سابقة بها. نظرة الارتياح الأولى لشخصٍ ما، تلك النظرة التي نادراً ما يحظى المرء بِها،

قفزت إلى مخيّلته تلك النظرة الأولى التي نظرها إلى هناء عندما دخلت الدكّان، النظرة التي وثق بِها.

كانت آمال هي الأخرى تختلس إليه نظرةً بين حينٍ وآخَر وهي جالسة كفراشةٍ وقد خضبت وجهها حمرة الخجل، فتلتقي نظراتهما أحياناً. بدت له كثيرة الصمت، قليلة الكلام، وإن تحدَّثت، أو ردَّت على سؤالٍ، أجابت بإيجازٍ شديد.

عندما بلغت الساعة الواحدة بعد الظهر، دخلت أناهيد برفقة آمال لإعداد الغداء، وكان إدريس قد جلب البارحة سمكةً وتبَّلها بشكلٍ جيّد، ووضعها في البراد، فقلتا السمكة مع صحن من البطاطا، ثم أعدَّتا الوجبة مع صحنٍ من السلطة، وعبوات البيبسي، وكانت أناهيد قد جلبت معها عبوةً من المخلل المكوَّن من القثاء والفليفلة، فكان المخلل طيّب المذاق مع الوجبة.

***

بعد الانتهاء من تناول الغداء، ثم تناول الهريسة، واحتساء الشاي، فوجئ إدريس بنهوض آمال قائلةً بأنّها سُعِدت بلقائه وتهنئته بالعودة سالِماً إلى البيت.

كان يعتقد بأنّها سوف تبقى إلى يوم الغد مع أناهيد، بل كان يرجو ذلك، ولكنها قالت بأنّها استأذنت أهلها بالمجيء على أن ترجع اليوم.

بعض الناس يبرحون وينتهي كل شيء كأن شيئاً لم يكن، وبعض الناس يبرحون، ويتركون أثراً في المكان، وفي القلب أيضاً. هذا ما راوده عندما خرجت آمال وتركت فراغاً في المكان وفي القلب بالنسبة إليه، كما لو أنّها أخذت شيئاً منه معها.

قالت أناهيد: أمّي تحب آمال كثيراً، كنتُ صغيرة عندما كانت تأتي إلينا في البيت، تمضي ساعات مع أمّي وتساعدها في بعض شؤون البيت، وعندما كبرت، صرنا صديقتَين، تصحبني في الذهاب إلى السوق لشراء بعض احتياجاتي، وأستشيرها في بعض الأمور.

شيءٌ آخَر جذبني إلى آمال يا أبي وهو أنّها تقرأ كثيراً القصص والروايات، وبفضلها قرأتُ مجموعة من الكتب القصصية والروائية. وهي أيضاً تكتب، وتوجد لديها رواية مطبوعة، كانت قد كتبتها وأرسلتها إلى إحدى المسابقات الخاصة بالكاتبات الشابات اللواتي لم يسبق أن طبعن أعمالهن، وعندما صدرت النتائج، كانت روايتها في المرتبة الثانية. مضى على ذلك حوالي خمس سنوات، ومن يومها لم تكتب شيئاً، تقول بأنَّها لم تصل بعد إلى الفكرة التي تستحقّ أن تكون نواةً تورق منها شجرة روايتها الثانية، هذا الوصف هو لها يا أبي، هي التي تقول لي ذلك عندما أسألها عن كتابة رواية ثانية. ولا أخفيك يا أبي بأنّني أنتظر روايتها بشغف حتى أقرأها، لقد تعلَّمتُ من روايتها

الأولى الكثير. آمال هي أديبة بكل معنى الكلمة يا أبي، ولذلك أنا وأمّي نحترمها كثيراً.

آمال

أمضت ابنته يومَين حافلَين وهو يحتفي بِها، وعندما ودَّعته وخَرَجَت، بدا البيت موحشاً أكثر من المرة الأولى، أحسَّ بفراغٍ رهيبٍ في البيت، وكأنّه تحوَّل إلى ركنٍ صقيعيٍّ يخلو من أيّ ذرة دفء.

في اليوم التالي، تناهى رنين هاتفه، ظهر اسم هناء على الشاشة، وكأنه شمعة في ظلام دامس، خفق قلبه وهو ينظر إلى الاسم على الشاشة، ويستمع إلى الرنين الذي غدا كأغنية شجية يستمع إليها. فتح الخط، فجاء صوت هناء: طمئنّي عنك يا أبا أناهيد؟

قال: الحمد لله على كل حال.

جاء صوتُها: ما رأيك بآمال؟

فوجئ بالسؤال، ارتبك دون أن يعرف ما يقوله جواباً على سؤالٍ لم يكن يتوقَّعه، أردفَت: آمال إنسانة طيّبة وتنتمي إلى أسرة عريقة في العاصمة. لبث صامتاً يستمع إليها، فقالت بعد ثوانٍ: هل تسمعني؟

قال: نعم، نعم أسمعكِ جيداً.

قالت: تحدَّثتُ لها عنك، أعتقد بأنّها امرأة مناسبة لك، ماذا تقول؟

بعد قليلٍ من الصمت، أدرك بأنها تنتظر إجابته، فقال: لي ثقة عمياء باختياراتك مهما كانت هذه الاختيارات يا أم أناهيد.

قالت: لا أخفي عليكَ يا إدريس شعوري بأنّك مسؤوليتي، كل نظرة أنظرها لأناهيد، تُذكّرني بك، بل ما نظرتُ إليها نظرة واحدة قطّ منذ اليوم الأول لولادتها وحتى الآن، إلّا وذكَّرتني تلك النظرة بك، ولن أرتاح إلّا بعد أن أراك مستقرّاً في بيتك الزوجي، زوجتك ستترك أثراً على طبيعة علاقتك بأناهيد، سواء سلباً أم إيجاباً، آمال إنسانة مُرهَفة، وأنا واثقة بأنّها ستبقى على علاقة وطيدة بِها، الآن وفي المستقبل عندما تنجب أخوة وأخوات لأناهيد. هذه مسألة مهمّة وحسّاسة جدّاً يا إدريس حتى تبقى العائلة متماسكة.

قال: من خلال اللقاء الأوَّل بها بدت لي امرأة مريحة.

قالت: هذا مهمٌّ جدّاً، في البداية اقترحتُ عليها الفكرة، وطلبتُ منها ألّا تردّ عليَّ قبل أن تراك وتتحدَّث معك، فإن ارتاحتْ لك، أخبرتُك بالأمر، وإن لم ترتح، نسيتُ ذلك وكأن شيئاً لم يكن، لكنّها بعد أن جاءت مع أناهيد، ورأتك وتحدَّثت معك، قالت لي بأنها توصَّلت إلى قناعة بأنك رجل مناسب لها، ولمحتُ الارتياح على قسمات وجهها وهي تتحدَّث عنك، أعتقد مثل هذه المرأة، باتت نادرة في مجتمعنا يا إدريس، هي

بالنسبة لي لؤلؤة نفيسة، وسأكون مرتاحة إذا توَّجتَ عائلتنا بِها.

***

جلس إدريس يستردّ ملامحها المترسّخة في مخيّلته، يستردّ حركاتها، نبرات صوتها، يتخيَّلها جالسة وهو بين لحظةٍ وأخرى يختلس منها نظرةً، فتلتقي نظراتهما.

هل يمكن أن يعود متزوّجاً كما كان؟ أن يبدأ صفحةً جديدةً من حياته من خلال امرأةٍ جديدة، وزواجٍ جديد؟

كم بدت الحياة غنيّة أمامه في تلك اللحظات، وأن غناها لا ينضب، كم بدت واسعة لا حدود لسعتها، والإنسان هو الذي يضيّقها على نفسه، أو يوسّعها على نفسه، فإن ضيَّقها، ضاقت عليه، وإن وسَّعها، وسعت عليه.

كيف فكَّر بالانتحار؟ كيف بلغ مرحلة اتّخاذ ذاك القرار المروع؟ ألا يكفي أنّه تصرَّف تصرّفاً غبياً عندما استجاب لتحريض أخته وقتل زوجها، وقضى عقدَين من زهرة حياته في السجن؟

وقف على قدَمَيه، دنا إلى النافذة، كان المطر قد توقَّف، وكانت خصلات من الشمس تفترش الأرض والجدران، فتح النافذة لتغيير هواء البيت، نظر إلى حمامتين تتقافزان على حائطٍ مُسامِت، ثم نظر إلى الناس يمشون في الشارع، امرأة

تمسك بيد طفلٍ يمشي بمشقّة، السيّارات تمضي، الحركة تدبّ. بعد قليلٍ مضى نحو الحقيبة، فتحها، وقعت عيناه على الكيس الأسود، سحبه من الحقيبة وفتح العقدة التي كانت تحكمه، تراءى الحبل، سحبه إلى الخارج، رمق طوله المفتول، تخيَّله كأفعى طويلة. أعاده إلى الكيس ومضى كي يقذفه في حاوية القمامة، توقَّفت به قدماه أمام الباب، رجع إلى الداخل، حمل قدّاحةً، وخرج إلى الشارع ينظر يمنةً ويسرة دون أن يرى أحداً، قذف الكيس على الأرض وقبل أن يشعل فيه النار، فوجئ برجل في الشارع كأنه خرج من جوف الأرض، ترامقا وهو يمضي من أمامه، ثم صار يلتفت خلفه وينظر إليه بين خطواتٍ وأُخرى، ورآه يقف في ناصية الشارع وهو يصوّب نظراته إليه، عند ذاك قرّر ألّا يكترث به وأوقد النار بالكيس وما فيه، وانتظر حتى تحوَّل إلى رماد.

راوده شعورٌ بأنه أخرج أفعى من بيته، وأنّه لو وضعها في حاوية القمامة، كان يمكن لها أن ترجع إليه، لكنّها الآن تحوَّلت إلى رماد سوف تذروه الرياح.

***

دبَّ نشاطٌ في بدنه، أحسَّ بإشراقةٍ كانت خافتة جداً، على وشك أن تنطفئ، لكنَّها شعَّت في داخله من جديد. ارتدى ثيابه، تهندم برويَّةٍ وهو يدندن، خرج من البيت وذهب لأوَّل

مرة إلى الدكّان الذي كان قد استأجره، رأى شخصاً آخَر كان يُدير الدكّان وقد حوَّله إلى دكّانٍ لبيع أنواع الحلويات، فتغيَّر ديكوره تماماً كأنّه لم يكن سابقاً دكّاناً لبيع الأقمشة.

لمح بعض الأشخاص يجلسون في الداخل، يتناولون الحلويات، راودته رغبة بالدخول إلى المحل، والجلوس على كرسيٍّ وتناول حلوى. امتدَّت به خطواتُه إلى الداخل، رحَّب به الرجل الأكرش الذي كان يرتدي مئزراً أبيض اللون، وقال: أهلاً وسهلاً..

جلس على كرسيٍّ وطلب صحناً من الكنافة.

حاضر. قالها الرجل بلطفٍ، وبعد قليلٍ عاد حاملاً إليه صحن الكنافة بالجبن، وضعه أمامه على المائدة مكرّراً قول: أهلاً وسهلاً.

شكراً. قالها وبدأ يتناول بالشوكة الحلوى اللذيذة الساخنة، وهو يجول بنظراته في أرجاء الدكّان، يتخيَّل تلك السنوات التي أمضاها فيه.

بعد أن انتهى، أنقد الرجل قيمة ما تناول، وخرج وهو يدرك بأنّه فقد كل علاقةٍ له بذاك الدكّان.

وقف على رصيف الدكّان كما كان يقف سابقاً ويضمّ ذراعَيه إلى صدره، نظر يمنةً ويسرة، لفت نظره رجل بساقٍ واحدة يمشي متكئاً على عكازين وسط جموع الناس في قلب السوق،

نظر إليه وهو يمشي بثقةٍ على طرفٍ من الرصيف، ثم ما لبث أن مدَّ خطواته واتَّجه إلى مكتبٍ عقاريٍّ له معرفة سابقة بصاحبه، عند وصوله إلى المكتب، رأى رجلاً آخر غير الذي كان على معرفةٍ به، وقد حوَّل المكتب إلى محلٍّ لبيع الهواتف الخلويّة.

اقترب من باب المحل بدافع الفضول، وكان الرجل منهمكاً بالتحدّث مع بعض الأشخاص الذين كانوا يتفحَّصون بعض الهواتف، رفع رأسه إلى الأعلى وعيناه تضيقان وتتسعان محاولاً تذكّر الاسم، بَيدَ أنَّه لم يفلح. تراجع عن باب المحل ومشى قليلاً، انتبه إلى المحل المجاور له، مدَّ نظره إلى داخل المحل، فرأى رجلاً يرتدي معطفاً شتوياً بياقةٍ فرائيّة، حادّ الملامح، اشتعل شعره شيباً يجلس خلف طاولةٍ. تذكَّر بأنّه نفس الرجل الذي كان يدير هذا المحل سابقاً في بيع السمانة، ولم يغيّر مهنته.

عندما رآه الرجل واقفاً في واجهة الدكّان وينظر إلى الداخل، نهض من خلف طاولته بظهره المحدودب وقال: تفضّل.. تفضّل يا أخ.

مدَّ إدريس خطواته إلى داخل المحل، تأكَّد أكثر بأنّه نفس الرجل الذي لم يكن آنذاك قد غزا الشيب شعره، ولم يكن

ظهره قد احدودَب، فقال: أريد أن أسأل عن جارك الذي كان محله مكتباً عقارياً في السابق، المعذرة، نسيتُ اسمه.

نظر إليه الرجل مطوَّلاً وقد احتدَّت ملامحه أكثر وقال: تقصد (عقيل)؟

قال إدريس: نعم.. نعم.. هذا هو، عقيل.

مأساة عقيل

تذكَّر الرجل وهو ما يزال ينظر إليه بإمعانٍ بأنّه رآه عدَّة مرات وهو يزور جاره عقيل في المكتب، فقال: يبدو بأنك لم تكن في المدينة، عقيل منذ حوالي خمس سنوات - أجارنا الله - أصيب بمرض الزهايمر، ثم أردف يقول: إن لم أكن مخطئاً فقد رأيتك عدّة مرات وأنتَ تزوره، كان ذلك منذ سنواتٍ طويلة.

قال: نعم، كنتُ أزوره بين فترةٍ وأُخرى عندما كنتُ أجيء إلى هذه المنطقة لقضاء بعض الاحتياجات، كنتُ أمرّ عليه في المكتب، عقيل رجلٌ طيّب، تعرَّفتُ عليه أوَّل مرّة عندما اشتريتُ بيتي الذي أسكن فيه الآن، عن طريق مكتبه.

ربت على كتفه وقال: أهلاً وسهلاً بك..

قال: أنا إدريس.

فأعاد الرجل ترحيبه به: مَرحباً بك يا أخ إدريس، وأنا اسمي (هاشم)، تفضّل. قالها وهو يشير إلى كرسيٍّ قديم كان بجانب الطاولة، فجلس إدريس شاكراً إيّاه، وما لبث الرجل أن فتح البرّاد، أخرج زجاجة كوكا كولا وقدَّمها له قائلاً: اعتبرني بدلاً عن عقيل، وإن شاء الله لن أقصّر معك بما أستطيع.

قال: فعلاً، لقد غبتُ عن المدينة عشرين سنة، لكن أين هو عقيل..؟

قال الرجل وهو يهزّ رأسه بأسف: ماذا أقول لك يا أخ إدريس، ما حدث للمسكين عقيل يكاد لا يُصدَّق. كانت لديه ابنة اسمها (جيداء) اسمٌ غريبٌ ولكنّني حفظته لِما حصل لجاري الطيّب بسببها، لا أوجع رأسك يا أخ إدريس، المهم أن جاري عقيل زوَّج ابنته لرجل اسمه (ممدوح) وكان يعمل خبّازاً في إحدى المخابز الأهلية. وبعد سنةٍ من زواجهما، أنجبت له ابناً، كبر الابن، وصار في الرابعة من عمره، وكانت أمّه تأتي به أحياناً إلى جارنا عقيل، فيبقيه عنده ويداعبه، ويشتري له من دكّاني بعض الشوكولاتة والبسكوت، وعندما يغلق الدكّان، يعيده إلى أبوَيه. كان متعلّقاً بحفيده الذي كان أوّل حفيدٍ له من ابنته الوحيدة. وذات يومٍ رأيتُ جاري مهموماً وجهم الوجه، فلم أتمالك نفسي، وسألته عن السبب؟ فقال بأن خلافاً نشب بين ابنته وزوجها، وذهبتْ إلى شرطة العنف الأُسَري، شَكَته عندهم بتهمة الإهمال الذي يلحق الأذى النفسي بها، وقالت بأنّه إذا استمرَّ في إهمالها، سيتسبَّب لها بالاكتئاب.

فجاؤوا وألقوا القبض على المسكين، وأخرجوه من بيته، وأمضى ليلةً في غرفة التوقيف، ثم أخذوه إلى القضاء، فَسَجَنته القاضية.

وعندما سمع جاري عقيل بذلك، ذهب إلى ابنته، وأوبخها على ذاك التصرّف المسيء بحقّ زوجها، وأراد أن يأخذها على

الفور كي تسقط ادّعاءها عليه، لكنه فوجئ برفضها رغم إلحاحه الشديد، فخرج من بيتها وهو يقول: عليكِ غضبي إلى يوم الدّين يا جيداء.

المهم يا أخ إدريس، بقي زوجها أسبوعاً في السجن، ثم خرج بكفالةٍ، ورجع إلى البيت، ولكن زوجته عندما فتحت الباب ورأته، أحكمت الباب في وجهه ومنعته من الدخول، فنطّ من الحائِط ودخل البيت متوتّراً، عندها طفقت زوجته تصرخ في وجهه وتدفعه إلى الخارج، وتقول: إن لم تخرج، سوف أتّصل بالشرطة وأقول لهم بأنّك حاولتَ قتلي.

قال: أين أذهب؟ هذا بيتي وشقاء عمري.

قالت: قل هذا الكلام للشرطة، وعندما رآها مستمرّة بدفعه إلى الخارج، صفعها وأبعدها عنه، فحملت الهاتف واتَّصلت بالشرطة قائلةً بأن زوجها يريد أن يقتلها وطلبت منهم أن يحضروا في أقصى سرعة. عند ذاك، هرع إلى المسدّس، وأطلق عليها النار، وعلى ابنه، ثم على نفسه.

عندما جاءت الشرطة، رأت ما حدث، وتم إسعافهم على الفور، كان الرجل وابنه قد ماتا، وبقيت جيداء، حكت لأمّها تفاصيل ما حدث بينها وبين زوجها، وماتت في المستشفى هي الأخرى بعد عشرة أيام.

أخذت صحّة جاري عقيل تسوء بعد الحادث، ولم يعد يفتح المكتب، وبعد نحو سنة، أصيب بالزهايمر، فاضطرَّت زوجته أن تبيع المكتب.

بعد صمتٍ خيَّم عليهما بعض الوقت، قال إدريس: على كل حال، جئتُ إلى هنا وتوقَّعتُ أن أرى عقيل كي يجد لي دكّاناً أستأجره لأبيع فيه الأقمشة، هذه كانت مهنتي السابقة.

صفن الرجل بعض الوقت، ثم قال: إذا كان الأمر كذلك يا أخ إدريس، فأنا مستعدٌّ أن أؤجّرك دكّاني، لأنّني أفكّر أن أفتح لي دكّاناً في جزءٍ من بيتي في الحارة، كما ترى لقد كبرتُ وتجاوزتُ السبعين من عمري ولم أعد قادراً على قطع المسافة كل يوم بين الدكّان والبيت، والأمر الآخر، أن أهلي سوف يتناوبون معي بالبقاء في الدكّان.

واستطرد يقول: إذا كان الموقع مناسباً لمهنتك فأنا جاهز، لا تتسرّع، ادرس الأمر على مهل وردّ لي الخبر، إن كان بالقبول، أو بالاعتذار.

ألقى إدريس نظرةً إلى الخارج وقال: الأمر لا يحتاج إلى دراسة يا عمّ هاشم، أعرف الموقع جيّداً، وأنا موافقٌ عليه لأنّه مناسب لهذه المهنة.

الفصل السابع

عنف لفظي

رأى إدريس بأن مشواره كان مثمراً، فسلك طريق العودة إلى البيت منشرح الصدر وهو يشعر بأنّه وضع أساساً مهمّاً لمرحلته العائليّة الجديدة. عقد يدَيه خلف ظهره ومشى وهو يشعر بالرغبة في المشي مع نفسه دون أن يركب سيارة كي توصله إلى البيت. غدا ينظر إلى الطرقات، إلى الأبنية، إلى وجوه أناسٍ من سكّان المدينة القدامى اعتاد أن يراهم كلّما دخل السوق، كأنَّهم خُلِقوا ليتواجدوا في السوق، وأن السوق لا يكون سوقاً إذا خلا منهم، إلى التغييرات الكبيرة التي طرأت على كل ركن من أركان المدينة، حتى وجوه الناس تغيَّرت، لم يعد يعرف الكثيرين الذين كانوا يشغلون المحال العامة في المدينة، كان هناك أناس يشبهونهم، على الأغلب هم أولادهم الذين ورثوا عنهم تلك المِهَن، إنه الجيل الجديد الذي لم يكن قد ولد عندما دخل السجن، أو أنّه كان في سنوات الطفولة. وبينما هو يمشي اصطدم كتفه بكتف رجل فاعتذر له، وعند دخوله إلى شارع فرعيٍّ ضيّق، لفت نظره جمعٌ من الناس أمام أحد الأبواب. دنا إليه، سمع البعض يقول بأن رجلاً قتل زوجته بسبب خلافاتٍ نشبت بينهما، ولم يكتف بقتلها، بل قطّعها

إرباً إرباً بوحشيةٍ. استأنف المشي وهو يحوقل، وعند دخوله إلى ناصية شارعٍ طويل، رأى سيارة لشرطة العنف الأُسَري واقفة أمام أحد الأبواب، تمهَّل في المشي وهو ينظر إلى الباب، وبعد قليلٍ خرجت الدوريّة وهي تقتاد رجلاً مقيَّد اليدَين، توقَّف على الرصيف المقابل ينظر إليهم وقد كتَّف يدَيه حول صدره.

في تلك اللحظات، قفز إليه كلام طاهر: هذا قانون حسّاسٌ جدّاً، لا يُستخدَم إلّا في ظروفٍ طارئة تكون نسبة الخطورة فيها في أقصى درجاتها، مثل بعض الأنواع من الأدوية، لا توصف إلّا لمرضى أصبحوا في درجات متقدّمة من الخطورة، فتعطي مفعولها الإيجابي المُباشر على المريض. وهم لا يقتحمون البيوت كرجال شرطة مدجّجين بالأسلحة، بل يطرقون الأبواب بلطفٍ، ويدخلون البيوت كمصلحين اجتماعيين، يعوّلون بالدرجة الأولى على الكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة، يحافظون بكل إمكاناتهم على تماسك العائلة، وينأون بأنفسهم عن التدخّل في تفاصيل خاصّة بين الزوجَين، يُحاولون أن يَخرجوا من البيت وقد تركوا الزوجَين في حالة صلح، أو خفّفوا من نسبة الاحتقان بينهما، دون أن يأخذوا الأب إلى المركز، يتحدَّثون معه بود واحترام لأنّه ربّ أسرة وهم في بيته، ويتجنَّبون أن يكون النقاش بحضور الأبناء،

وحتى في أقصى درجات الخلاف، لو أخذوه، فإنَّهم في المركز يسعون للإصلاح بينه وبين زوجته تجنّباً لإحالتهما إلى القضاء، لأنهم يُدركون بأن إحالتهما إلى القضاء، يكون بمثابة تفتيتٍ للعائلة وتشريدٍ للأولاد. فهم شرطة خاصّة يكونون من المصلحين الاجتماعيين، أكثر مما همّ من الشرطة العامّة، وكل شيءٍ في انتقائهم يكون مدروساً، فحتى وجوههم تكون مسالِمة وتبعث على الأريحيّة، لأنَّهم سوف يذهبون إلى بيوتٍ زوجية في وقتٍ يكون فيه الزوجان في حالة توتّر، فيسعيان إلى تخفيف حالة التوتّر بينهما، وهم يعلمون بأن التدخل التعسّفي يمكن أن ينجم عنه ردّ فعل من الرجل، ولذلك لا يتسبّبون بقتل زوجةٍ واحدة، وإن تسبّبوا، فإن المدير العام لجهاز العنف الأُسَري سيُقدّم استقالته لأنّه سيعتبر نفسه مسؤولاً عن قتل تلك الزوجة، وتلك الأم، فهم يكونون مِن نُخبة المصلحين الاجتماعيين والتربويين، وأكثر فئات الشرطة حكمةً وسلماً. ولا يأتون لمجرّد اتّصال امرأة بهم وهي في حالة غضب، فيتأنّون حتى لو اتّصلت بهم للمرة الثانية لعلّها تهدأ وتغيّر رأيها.

ولذلك هم أقل مراكز الشرطة عملاً، ونادراً ما يتواجد زوجان عندهم، لأن المرأة هناك وحفاظاً على تربية أولادها، لا تُدخل الشرطة إلى بيتها كي يعتقلوا أباهم أمام أعينهم، إلّا في حالاتٍ طارئة جدّاً، ولا يوجد محام هناك يطلب من الزوجة أن

تخدش نفسها، أو تفتعل شجاراً مع زوجها، كي يضربها، فتتّخذ من ذلك ذريعةً لإدخال الشرطة إلى بيتها، وحتى لو قدَّمت الصور والتقرير بالعنف، فإنّه لا يقدّمها للقضاء حتى يتحقّق من صحّتها بنسبة مئة بالمئة.

يومها ضحك معاذ وقال: منذ مدَّة جاءنا رجلٌ شديد السمرة إلى هذا المهجع وقال بأنّه كان جالساً في البيت مع زوجته عندما طُرق الباب طرقاتٍ عدَّة، فنهض وفتحه، وفوجئ بعناصر من الشرطة، وقالوا بأنَّهم شرطة العنف الأُسَري وقد تلقّوا شكوى من زوجته قبل نحو نصف ساعة عبر اتّصالٍ هاتفي. وعندما سمعت زوجته أصواتهم، جاءت إلى الباب وأخبرتهم بأنَّها لم تتّصل بهم، وأنَّهم قد أخطأوا في العنوان. فقال رئيس الدوريّة: هذا هو نفس الشارع، قلتِ لنا بأن زوجكِ مارس عليكِ العنف لفظيّاً.

قالت الزوجة: كيف لفظيّاً؟ وهل يوجد عنف لفظي؟!

قال الضابط: نعم يوجد عنف لفظي قد تكون آثاره أسوأ من العنف الجسدي، لأنّه عنف نفسي يمارسه الرجل بحقّ زوجته.

قالت: كيف يكون هذا العنف اللفظي يا حضرة الضابط؟

قال: يوبخ الرجل زوجته، ويستفزّها ببعض كلماته عن قصد، ينقص من شأنها، يرفع صوته عليها.

فتبادلت مع زوجها النظرات، وفي تلك اللحظات أظهر الضابط رقم الهاتف الذي اتَّصلت به المرأة، وأجرى مكالمةً به كي يتحقَّق إن كان هاتفها، أم لا. ولم يرنّ الهاتف من بيت المرأة الواقفة، بل تناهى رنينٌ من البيت الملاصق له، وبعد قليلٍ فُتح الخط فقال الضابط: نحن في نفس الشارع، أخرجي حتى نراك. ففتحت المرأة الجارة الباب، وعندما اتّجهت دورية الشرطة إلى بابها: نادت زوجتي بالضابط قائلةً: مهلاً أيَّها الضابط، زوجي أيضاً يُمارس عليّ العنف اللفظي. فأخذوني مع جاري في نفس السيّارة.

بقي الرَّجل شهراً في السجن ثم خرج، ولكنه بعد عدَّة أشهر من خروجه رجع إلينا وهو يعرج، فسألناه عن السبب؟ قال بأنّه صار مثل القطّة في البيت، وتحوّلت زوجته إلى لبوة تستفزّه، وتطلب منه أن يجلي الصحون، ويغسل الثياب، ويقدّم الضيافة لأقربائها الذين يزورونها، وإن رفض، أو تأخَّر، أشارت إلى الهاتف مهدّدةً إيّاه بأنّها سوف تُعيده إلى السجن بمكالمة هاتفية مع شرطة العنف الأُسَري. وقال بأنّه منذ يومَين، خرجت منه عطسة قوية لم يستطع أن يتحكَّم بها، فصرخت في وجهه قائلة: أنتَ تعيش في بيتٍ ولستَ في خانٍ للأبقار. فقال لها بأنّها أحالت البيت إلى جحيم، وأنّها تتمادى كثيراً عليه. عندها حملتْ الهاتف وقالت وهي تتّصل بشرطة

العنف الأسَري: الآن سنعرف مَن يتمادى على مَن، لقد كتبتَ تعهّداً على نفسك بأنّك لن تعود إلى الاعتداء اللفظي علي، سأخبرهم بأنّك أخللت بتعهّدك وعدت. فقال: إلى هُنا وقد طفح الكَيل. وكانت قد أنهت الاتّصال مع الشرطة بانتظار أن يأتوا، فانقضّ عليها وقد استشاط غضباً، سحبها من شعرها وطفق يقع عليها ضرباً مبرحاً بكل ما أوتي من عنف، ثم هرع إلى المطبخ، حمل سكيناً وانهال عليها بالطعنات حتى قضى عليها.

عند ذاك توالت طرقاتٌ على الباب، فركض إليه مسرعا والسكين بيده، فتحه وأراد أن يطعن به أحدهم، فأطلق شرطيٌ آخَر طلقةً على قدمه، وأخذوا منه السكين، وألقوا القبض عليه. وفي اليوم التالي صدر بيانٌ من مركز الشرطة بأنّها استطاعت بسرعةٍ قصوى القبض على مجرمٍ خطير قتل زوجته طعناً بالسكين، وتهجّم بالسكين على عناصر الشرطة الذين استطاعوا القبض عليه، وإحالته إلى القضاء، ويُعدّ هذا من إنجازات شرطة العنف الأسَري الذي أصبح يتزايد بشكلٍ ملحوظ.

أثار منظرهم الاشمئزاز لدى إدريس وهو واقفٌ على الرصيف يرمقهم بنظراته، أدخلوا الرجل إلى السيارة كما لو أنه مجرمٌ ارتكب مجزرة وفرّ هارِباً وبات يُشكّل خطراً على أمن البلاد

والعباد، فوقع في أسرهم بعد أن نصبوا له كَميناً. أغلقوا أبواب السيّارة بقوة ومضت بتقليعةٍ سريعة مصطحبةً الصيد الثمين، نظر إليها وهو واقفٌ، وخرجت من فمه كلمات كأنها شرارات تلاحقهم: لعنة الله عليكم وعلى تلك المسدسات التي تعلقونها على أقفيتكم القذرة، تقتحمون بها بيوت الناس بلا رادع، كما لو أنَّكم تعيشون في قريةٍ لا كلاب فيها.

اعتصام

استأنف إدريس مشيه بقامته المتوسّطة وعينَيه البرَّاقتَين، يتأمَّل الوجوه، المحال، السيارات وهي تمضي في الطريق، طلبة وطالبات وهم يعودون من مدارسهم، متسوّلون ومتسوّلات يسألون الناس وهم يفتحون أكفَّ السؤال، أناسٌ يحملون سلعاً بأيديهم ويمضون.

وقعت عيناه على جمعٍ من نحو عشرين رجلاً يقفون أمام الباب الرئيسي لمبنى المحافظة، دنا إليهم، فعلم بأنَّهم مجموعة من الرجال الذين ما عادوا قادرين على الذهاب إلى بيوتهم، وقد أضحوا في الشوارع دون مأوى، جاؤوا معتصمين، وهم يحملون لا فتة كتبوا عليها: أوجدوا لنا مأوى، أو أعيدونا إلى بيوتنا. لو لم يدخل إدريس إلى السجن، ورأى ما رأى، لبدا الكلام متناقضاً بالنسبة إليه، فكيف يملك المرء بيتاً، وهو ممنوعٌ من دخوله؟ كيف وهو لديه عائلة، وممنوعٌ من الدخول إليها وإعالتها؟ كيف لديه أبناء، وهو ممنوعٌ من تربيتهم؟! امتدَّت به خطواتُه صوب الجمع، وانضمّ إليهم بشكلٍ تلقائي.

قال أحدهم، وكان رجلاً في متوسّط العُمر، طويل القامة، محتقن الوجه، ذا شعرٍ منكوش ولحية كثة: كنا جالسين في البيت بأمان الله، وفجأةً طُرِق الباب، ذهبتُ لأفتحه، فرأيتُ

امرأتَين بثياب الشرطة، قالتا بأنَّهما من مركز شرطة العنف الأُسَري، وجاءتا حتى تتحقّقا من عدم وجود تعنيف في البيت، وقالتا بأن العنف أحياناً يقع على المرأة، لكنها لا تستطيع أن تبلّغ الشرطة لأن زوجها يكون قد احتجزها في البيت ومنعها من الحصول على هاتف خلوي، ولذلك لا بدّ أن تتأكّدا من وجود هاتف خاصّ عند زوجتي، وأنّها لا تتعرَّض للعنف النفسي، أو البدني. وبعد ذلك سوف تجلسان معها على انفراد لإعطائها التعليمات والإرشادات، ولمجَّرد تلقّيها إزعاجاً منّي، ما عليها سوى أن تتّصل بالرقم الذي سوف يتم تثبيته في هاتفها.

ثم تأفّف الرجل واستطرد يقول: كنتُ أعلم بأنّهما تحملان الفتنة لبيتي، وسوف تلحقان بنا الأذى، ولذلك حاولتُ بكل إمكاناتي أن أمنعهما من الدخول، لكنّني لم أفلح، لأنهما في النهاية هدّدَتا بالاتّصال بالمركز كي تأتي دورية وسوف تتم محاسبتي قانونياً لأنّني أعيق خطّة عملهما الرسمي.

حينها، رضختُ وأدخلتهما إلى البيت، وكانت زوجتي تُصلّي، انتظرَتا حتى انتهت من صلاتِها، تحدَّثتا معها عن بعض تفاصيل حياتنا، ثم طلبتا منّي الخروج من الغرفة وتركهما معها. فخرجتُ من الغرفة إلى غرفةٍ أخرى، وبعد نحو ساعة نادتني إحداهما بصيغة الأمر كأنّني خادمٌ أعمل في بيتها، فاتَّجهتُ إلى

الغرفة، قالت وهي تتجشّأ بين حينٍ وآخَر: صوتك في البيت مُرتفعٌ، وأحياناً تمنع زوجتكَ من الذهاب إلى بيت أهلها، تمنعها من الذهاب إلى بيت جارتها، في السنة الماضية، وبختها ووجَّهتَ لها شتيمة لأنّها كانت قد خرجت إلى الدكّان واشترت بعض الاحتياجات عندما كنتَ في العمل، وترفض أن تشتري لها هاتفاً خلوياً. هذه كلها مخالفات يعاقبكَ عليها قانون العنف الأُسَري.

ثم اتَّجهتْ إلى زوجتي وقالت: لكنّنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً قبل أن نأخذ الضوء الأخضر منكِ، وهذا هو أساس أيّ تحرّكٍ منّا، ودونه لا نستطيع أن نفعل للمرأة شيئاً مهما عنَّفها الرجل، ومهما حرمها من حقوقِها. نحن نهدف من زياراتنا الميدانيّة هذه إلى ارتفاع نسبة الإبلاغ، وعدم إنكار حدوث العنف.

قالت زوجتي: ما المطلوب منّي؟

قالت: تَقدّمي بشكوى الآن عليه من خلالنا، وسوف نجعله يتعهّد بالتوقّف عن كل تلك الانتهاكات التي يمارسها بحقّكِ، ونلزمه كي يشتري لك هاتفاً، وتمارسي حريّتك، لأنكِ لستِ عبدة عنده.

قالت الشرطية الأخرى: الشكوى سوف تبقى مثبَّتة عندنا، وسوف تضمن حقوقكِ، لأنها سوف تجعلكِ في حماية قانون

العنف الأُسَري، أمّا إذا رفضتِ الشكوى، سوف تبقين مستسلمة له دون أن يحسب حساباً لأحد.

عندها فوجئتُ بزوجتي تقول: أنا موافقة على الشكوى. وما إن قالت ذلك حتى اتَّصلت الشرطية التي تتجشّأ على الفور بالمركز طالبةً دوريّة طوارئ على جناح السرعة. وطلبت منّي ألّا أتحرّك من البيت تحت طائلة تعميم بطاقة بحث عنّي لدى مراكز الشرطة بصفتي هاربٌ من العدالة.

بعد قليلٍ، جاءت الدورية، اقتحمت البيت، واقتادوني إلى المركز، أخذوا منّي تعهّداً بعدم التسبّب بأيّ عنفٍ لزوجتي سواء قولاً أم فعلاً، وأنّني سوف أخفض صوتي عندما أتحدَّث في البيت. ولم يكن لديّ ما أشتري به هاتفاً لها، فأعطيتها هاتفي، عندها فقط أخلوا سبيلي.

ازدردَ الرجل ريقه وأضاف يقول ونحن نصغي إليه: رضيتُ بكل هذا، لكن بدأتُ ألاحظ بأن زوجتي تتمادى عليّ، وترفع صوتها عندما تحدّثني، ولم تعد تطلب منّي طلباتها بلطفٍ كما كانت تفعل، بل تطلبها بصيغة الأمر وبصوتٍ مرتفع أمام أولادي، ثم تقول: لا تنس بأنّك كتبتَ تعهّداً، وأنّني بمجرّد الضغط على زرٍّ للهاتف، سوف أجعلك تذهب إلى غياهب السجن. ثم تستفزّني وهي تطيل التحدّث في الهاتف، أو تدخل إلى مواقع الانترنت، وحتى عندما أضطر للتحدّث مع أحدٍ،

فإنّها تتباطأ حتى تسمح لي التحدّث به، لأنّني بقيتُ دون هاتف، وكلّما ينفد رصيدها، تصرخ بصوتٍ عال: املأ لي الرصيد حالاً، وإلّا سأذهب بنفسي إلى الشرطة وأقول لهم بأنّك تقصَّدتَ أن تترك الهاتف من غير رصيد حتى لا أتَّصل بهم إذا عنَّفتني.

احترتُ يا جماعة ماذا أفعل، فإن طلَّقتها، أخذتْ البيت والأولاد، وطردتني، وإن بقيتُ مستسلماً للأمر الواقع، فإنّها تستفزّني ولا تتركني بحالي حتى رأيتُ بأنّني صرتُ أفقد هيبتي أمام أولادي.

ثم استطرد يقول وفمه يزبد: ذات يومٍ طلبتُ منها أن تعدّ لي فنجاناً من القهوة، وكعادتها، لم تردّ وهي منهمكة بالهاتف، كرَّرتُ عليها مطلبي عدَّة مرّات، فكانت ترمقني، وتعقد ساقاً على ساق وهي جالسة على الأريكة دون أن تردّ. رفعتُ من نبرة صوتي كي تنهض وتعدّ القهوة، فأشارت لي بسبابتها بأنّها ستتّصل بهم إذا رفعتُ صوتي ثانيةً.

عندها لم أتمالك زمام نفسي، فوقعتُ عليها بالصفعات والركلات حتى أشبعتها ضرباً، ثم حطَّمتُ الهاتف. أقفلتُ عليها الباب ومنعتها من الخروج لمدَّة يومَين، لكنها بعد ذلك استطاعت أن تخرج من البيت وتذهب إلى مركز الشرطة، فهربتُ من البيت، وبعد عشرة أيّامٍ ألقوا القبض عليّ في بيت

أحد أصدقائي. أمضيتُ شهرَين في السجن، وعندما خرجتُ، لم تُدخلني زوجتي إلى البيت، وقالت بأنّني لو طرقتُ الباب مرة أخرى، سوف تتصل بالشرطة وتقول بأنّني تهجَّمتُ عليها كي أقتلها. ثم رفعت عليَّ دعوى نفقة، وترتَّب بموجبها عليَّ دفع نفقة لها وللأولاد، وفي حال تأخّري أسبوعاً واحداً، تتّصل بالشرطة، فيتَّصلوا بي ويطلبون حضوري عاجلاً، فأضطرّ أن استدين وأدفع النفقة الشهرية حتى يخلوا سبيلي.

صمتَ قليلاً ثم قال ونحن ننظر إليه: توصلتُ إلى نتيجةٍ بأنّني لن أخلص منها، سواء طلّقتها، أو أبقيتها على ذمَّتي، بقيتُ في الشارع، ولم أعد أملك حتى أجرة الفندق كي أنام فيه، وتراكمت عليَّ الديون، لا أعرف ماذا أفعل، أحياناً يخطر ببالي أن أقتلها، وأستريح في السجن، لكنّني خائف على الأولاد من التشرّد. وبغتةً طفق يلطم وجهه ويبكي قائلاً: ماذا أفعل..؟ أنا محتار..؟ أكاد أفقد عقلي، كل الطرق تبدو مسدودة أمامي.

ضحكة المحافظ

عند ذاك دبَّت حركة من داخل المحافظة، وبعد قليلٍ ظهر المحافظ برفقة بعض معاونيه، وقف يوزّع نظراته على وجوه الحشد، قرأ اللافتة: أو جدوا لنا مأوى، أو أعيدونا إلى بيوتنا. تناولته نوبة ضحكٍ مجلجلة دون أن يلفظ بكلمة واحدة، استمرّ في الضحك وكأنه لم يعد قادراً على التوقّف، بل أبدى بعض المُحاولات كي يتوقَّف ويقول شيئاً، لكن نوبة الضحك كانت تغلبه. في تلك اللحظات، أخرج أحد الأشخاص من الجَمع مسدّساً وأطلق النار عليه فسقط ينتفض كعجلٍ مطعون، وأطلق بعض عناصر الشرطة الذين كانوا حول المحافظ الرصاص على الحشد بشكلٍ عشوائي، وألقوا القبض على الذين رفعوا أياديهم واستسلموا في أرضهم. وفي غضون دقائق قليلة، تعالَت صافرات سيارات النجدة والإسعاف، وامتلأ المكان بعناصر الشرطة وهم بكامل أسلحتهم.

رأى إدريس نفسه من ضمن الذين أُلقي القبض عليهم، وقد نجا بأعجوبةٍ من رصاصةٍ أصابت الشخص الذي كان ملتصقاً به. وأضحى الحادث، حديث الساعة في المدينة، بل حديث الساعة في مواقع التواصل الاجتماعي.

بعد بقاء يومَين في غرفة التوقيف بحراسةٍ مشدَّدة، رأى إدريس نفسه في نفس السجن الذي خرج منه، لكن في مهجعٍ آخَر. لم تكن الأجواء غريبةً عليه، راوده شعورٌ بأنّه كان قد خرج في زيارةٍ، ثم عاد إلى مهجعٍ آخَر من السجن.

ومن جهةٍ أُخرى، انتابه شعورٌ بأن ما حصل له زاده تمسّكاً بالحياة، وتخيَّل بأن تلك الرصاصة كان يمكن لها أن تصيبه بدلاً عن ذاك الشخص الذي كان ملتصقاً به، بل أنه اعتقد في لحظاتٍ بأنَّها أصابته.

***

بعد شهرٍ من توقيفه في السجن، سمع إدريس ذات يومٍ اسمه في الميكروفون من أجل الذهاب إلى الساحة للزيارة.

انطلق على الفور إلى الساحة ناسياً حتى أن يمشط شعره، فوقعت نظراتُه على أناهيد وآمال تقفان في الساحة بين الزوّار. وفور لقائه بهما، قالت أناهيد بأنها لم تترك موضعاً لم تبحث فيه عنه، وقالت بأن فكرة السجن خطرت لآمال، فقالت لها: لماذا نستبعد يا أناهيد أنّه في ذاك الوقت كان قريباً من جماعة المتظاهرين؟

قالت: أرعبتني الفكرة يا أبي، أكثر من أيّ تصوّرٍ يمكن أن يخطر لك، لأن الأخبار انتشرت كالبرق عَن مقتل المُحافظ، إضافة إلى خمسة من المُتظاهرين ومن ضمنهم الذي أطلق

النار. لذلك تردّدتُ، بل استبعدتُ الفكرة، لكن ماما طمأنتني فيما بعد عندما قالت بأنّها كانت خلال تلك الفترة تجري اتّصالاتٍ مع بعض معارفها، وتحقّقتْ بأنك لست من الأشخاص الخمسة، ثم قالت بأن لديها حدسٌ غريبٌ بأنك كنت مع جماعة المتظاهرين، وأنّك في السجن. وهذا ما شجَّعني على المجيء. أردفت تقول وهو ينظر إليها: سألنا عنك في مكتب الاستعلامات، فأجروا اتصالاتٍ وقالوا بأنّكَ موجودٌ في السجن، ولكنه لم يكن يوم الزيارة، ثم حدّدوا لنا هذا اليوم الذي تكون فيه الزيارة كل أسبوع في الفترة الصباحية.

قال: فعلاً يا بنتي هذا الذي حدث معي، ذهبتُ في ذاك اليوم إلى السوق كي أستأجر دكّاناً لأعود إلى مهنتي في بيع الأقمشة، وجدتُ الدكّان المناسب في موقع مناسب لمهنتي، واتفقتُ مع صاحبه على الأجرة الشهريّة. وبعد أن خرجتُ من الدكّان، خطر ببالي أن أمشي في بعض شوارع المدينة التي اشتقتُ إليها، وأرجع مشياً إلى البيت، وعندما اقتربتُ من مبنى المُحافظة، رأيتُ ذاك الجمع من الناس، فتقدَّمتُ إليه بدافع الفضول، وفجأةً كما لو أن صاعقة مدويّة وقعت، فحصل الذي حصل.

قالت: اليوم سمعنا في الباص ونحن في الطريق بأن سيارة دهست امرأة كانت تمشي على حافة الطريق، وهربت دون أن تقف أو تسعفها، وقال رجلٌ آخَر في الباص بأن أحد جواره قتل

زوجته عن طريق الخطأ، عندما جاءت إليه في مقرّ عمله، وكان يعمل في البناء، وفي تلك اللحظة، سقط من أعلى البناء حجرٌ كبيرٌ وأصاب زوجته التي كانت بانتظاره في الأسفل حتى ينزل ويعطيها النقود كي تذهب وتشتري بعض احتياجات البيت من السوق. ثم قالت وهي تنظر إلى آمال: وقال رجلٌ متقدّمٌ في السن كان يجلس بالقرب من مقعدنا بأن المحافظ كان على علاقة.... عند ذاك أسكتتها آمال بلكزةٍ سريعة على ذراعها، ولبثتا تتبادلان النظرات وحركاتٍ من وجهَيهما بصمت، فقال إدريس: اكملي يا أناهيد..

لكزتها آمال مرّة أُخرى حتى تبقى صامتة، أو تغيّر الموضوع، ولكنَّها أكملت قائلةً: نعم يا أبي، قال الرجل العجوز بأن المحافظ كان على علاقة بأخت زوجته، ومنذ نحو سنة عندما ماتت زوجته في حادث سير بسيّارتها.. أسكتتها آمال مرّة أخرى عندما تناوبت عنها تكملة الحديث بخجلٍ شديد وقالت: يقولون بأن الحادث كان مُدبَّراً، وما أكّد تلك الأقاويل أن المحافظ بعد نحو عشرة أشهر من موت زوجته، تزوَّج أختها.

ثم بعد قليلٍ من الصمت الذي خيَّم عليهم، قالت آمال: هل حُكِمتَ؟

قال: لا، ما أزال موقوفاً وبين فترة وأخرى يأخذونني إلى المحكمة للتحقيق، يستمعون إلى أقوالي، ويُعيدونني إلى هُنا.

التوأمان

بغتةً انتابت إدريس نوبة ضحك وهو مستمتع بالجلوس في صحن السجن مع ابنته، ومع آمال، فقالتا معاً: أضحكنا معك.

قال: في اليوم الأوَّل الذي أتوا بي إلى هنا، فوجئتُ برؤية شابَّين توأمين اسم أحدهما مسعود، والآخر منصور، كما لو أنّ أحدهما نسخة طبق الأصل عن الآخَر من كثرة الشبه الذي بينهما. ثم جال بنظره لعلّه يراهما ويشير إليهما لأنَّهما أحياناً يخرجان للزيارة معاً، وأردف يقول: صرتُ أنظر إليهما باستغراب، وعندما أرى أحدهما، لا أميّزه عَن الآخَر، وبعد يومَين عرفتُ سبب وجودهما معاً في السجن، وكان ذلك عندما تزوَّج مسعود، وأقام حفلة عرسه في إحدى صالات الأفراح، وقبل أن ينتهي العرس بقليلٍ، وبينما هو واقفٌ مع عروسته يتلقّيان التهاني، فوجى مسعود بـ (وداد) تتقدَّم إليه وهي ترمقه بنظرات تقدح شرراً، ارتبك مسعود لعلاقته السابقة بها ولم يعد يعرف ماذا يفعل، وعندما وصلته، وقفت لثوانٍ قبالته، وأنظار الحضور تتصوَّب إليهما، ثم بشكلٍ مُباغت رفعت يدها وسدّدت صفعة مدوّية على وجهه، فلم يحتمل مسعود، وردَّ عليها بصفعةٍ كانت أكثر قوَّة جعتلها تفقد توزانها وتتهاوى على الأرض ممّا أدى إلى كسرٍ في يدها اليُمنى التي كانت قد صفعته

بها. وبدل أن يأخذ مسعود عروسته إلى البيت، جاءت دوريّة من الشرطة واعتقلته، ثم تلقّى حكماً بالسجن ستة أشهر بسبب كسر يد المدَّعية التي أقامت عليه الدعوى.

لبثتا تنظران إلى فمه وهو يتحدَّث، فقال: بعد أسبوعَين من وجوده في السجن، خطرت لتوأمه منصور فكرة وهي أن يذهب إلى زيارته في السجن، وعندما تنتهي الزيارة، يذهب هو إلى المهجع ويرجع مسعود بدلاً عنه إلى البيت حيث عروسته التي تنتظره. وفي يوم الزيارة أخبر العروسة وبعض الأهل على نطاقٍ ضيِّقٍ حتى يكونوا على درايةٍ بذلك، وعندما التقى منصور بتوأمه مسعود في ساحة الزوّار، أخبره بهذه الخطّة، فوافق مسعود عليها، وأعطاه بعض المعلومات عن السجن، مثل موقع المهجع، ومكان سريره فيه، وما عليه من أغراض تخصّه، واسم رئيس المهجع، وعند انتهاء الزيارة قال منصور له: أنتظرك في الأسبوع القادم، لا تتأخَّر عليّ.

فقال مسعود: أسبوع واحد قليل يا أخي، فأنا عريس، سأجيء إليك بعد أسبوعَين، واتفقا على ذلك. ومضى الأمر بشكلٍ طبيعي دون أن يشكّ أحد من المساجين بشيء. ومضى الأسبوعان، استمتع فيهما مسعود مع زوجته، وعاد إلى زيارة منصور، وعند انتهاء الزيارة، اتّفقا أن يقوما بهذا التبادل كل شهرٍ مرّة واحدة لمدّة أسبوع، وعاد منصور إلى البيت، وبقي

مسعود في السجن. وبعد شهرٍ على ذلك، جاء منصور مرّة أُخرى إلى زيارة مسعود، وكان هناك حارسٌ منتفخ الوجه، برتبة رقيب، يقف في زاويةٍ من ساحة السجن ويسند ظهره إلى الحائط وهو يُدخّن، ويوزّع نظراته على المساجين والزوّار، فانتبه إلى الشبه الكبير بينَ مسعودٍ، ومنصور. فركَ عينَيه، ثم أغمضهما وفتحهما، لعلّه شخصٌ واحد، ولكنه يظهر أمام عينَه بشكل شخصَين، فأخذ نفسَين متتاليَين من السيجارة ورماها على الأرض، وداس عليها حتى أطفأها، ودنا وهو ينظر إليهما ووقف غير بعيدٍ عنهما وهو يحدجهما بنظراته، وقد تسرَّب إليه شكٌّ في الأمر، وعندما ودَّعا بعضهما، وخرج مسعود، واتّجه منصور إلى المهجع، سارع إليه الحارس وأمسكه من رقبته وقال: ما اسمك؟

قال بشيءٍ من تلعثم: أنا..؟

قال: نعم أنت.. وهل أكلّم غيرك؟

قال: اسمي مسعود.

قال الحارس: ومَن كان الشخص الذي زارك؟

قال: توأمي منصور.

قال الحارس: ماذا تغدَّيتَ البارحة في المهجع؟

فوجئ منصور بالسؤال، ولم يجب.

قال الحارس وهو يتفرَّسه بنظراته: وماذا تعشيت البارحة؟

سحب منصور شفته السفلى إلى داخل فمه، ولم يجب، عند ذاك قاده الحارس إلى مدير السجن، وأخبره بشكوكه عن استبدالٍ حصل بينه وبين توأمه الشبيه له. وأمام نكرانه، وإصراره بأنّه السجين مسعود، أحاله مدير السجن إلى قسم البصمات للتحقُّق من بصمته التي بصمها عندما دخل السجن. فتبيَّن بأنَّها ليست بصمته، وعندها اعترف منصور بالحقيقة، وحُكم هو أيضاً بالسجن ستّة أشهر بسبب التزوير والاحتيال على إدارة السجن.

الفصل الثامن

زيارات عيديّة

لبث إدريس في السجن، يأخذونه بشكلٍ متقطّع إلى المحكمة، يجيب على أسئلةٍ يوجّهها له القاضي، ويعيدونه إلى السجن.

وكانت ابنته برفقة آمال تزورانه كل أسبوع، دون أن يمضي أسبوعٌ واحدٌ لا تزورانه فيه. وخلال هذه الزيارات، توطَّدت العلاقة أكثر بين إدريس وآمال، كان يرى نظرات الشوق في عينَيها، يشعر بلهفتها، يتلمَّس اهتمامها به.

ذات مرة قالت له: كما لو أن ليس سوى هذا اليوم في الأسبوع يعنيني، أنتظره حتى يأتي، فتهلّ صبيحته عليّ كصبيحة عيد.

في تلك اللحظات، أحسَّ بأنّها عبَّرت عن مشاعره تجاه هذا اليوم الذي غدا عزيزاً عنده، ففي صبيحة هذا اليوم العيدي بالنسبة إليه، ينهض باكراً، يحلق ذقنه، يستحمّ بشكلٍ جيّد، ينظر في المرآة، يتهندم، فيقول له المساجين: في كل أيام الأسبوع، تكون كئيباً، ولكن في هذا اليوم تبدو مشرقاً يا إدريس.

يقول: لأنّني سوف أرى ابنتي، يقول ذلك وهو يُدرك بأنّه لم يقل لهم غير جزءٍ من الحقيقة، الحقيقة التي هي رؤيته لآمال،

آمال التي عندما تأتي يود لو أن الساعة تقف ولا تتحرّك، لكنّها تدور بشكلٍ أسرع من كل الأوقات الأخرى، فتنتهي الزيارة، ويودّعهما، يلوح لهما بيده حتى تختفيان عن أنظاره.

بعد خمسة أشهر من وجوده في السجن، وكما أن بعض الأحداث تقع بغرابةٍ وبشكلٍ غير متوقَّع، كان الإفراج عنه بشكلٍ غريبٍ وغير متوقَّع، فقد كان يوم الزيارة، وكان جالساً في ساحة السجن برفقة أناهيد، وآمال، وكما لو أنّه في حلم، أو بالأصحّ كما لو أنّهم كانوا في حلمٍ، دوى اسمه الكامل من ميكروفون السجن: إدريس زيدان قدور، إخلاء سبيل. ثم تكرّر الاسم للمرة الثانية: إدريس زيدان قدور، إخلاء سبيل. نظر إليهما، نظرتا إليه، احتضنته ابنته وهي تقول: مبروك يا أبي.. مبروك.. لا أكاد أصدّق.

ظهرت علامات ارتياح على وجه آمال وقالت: ألف مبروك يا إدريس.. ألف مبروك.. لا أكاد أصدّق بأنّنا سنخرج معاً. بماذا كنّا نفكّر، وبماذا أصبحنا، سبحانك يا رب، ما أعظم شأنك.

خرجتا إلى قاعة الانتظار، وهَفا إلى المهجع، ودّع المساجين، تبادل معهم القبلات، أخذ بطاقته من رئيس المهجع، ومضى هرولةً إلى مكتب الخروج، وهو يشعر بأن أغلالاً قد انفكَّت عنه.

خروج مختلف

كان خروجاً مختلفاً تماماً بالنسبة له، وشتّان بين الخروجَين مِن السجن، الخروج الأوّل الذي كان قاتماً، عندما خرج كيتيمٍ، كمنبوذٍ، خرج بيأس العالم وكل خطوة إلى البيت كانت تزيده يأساً على يأس وكأن العالَم كلّه يرفضه.

والخروج الثاني الذي بدا مشرقاً منذ الخطوات الأولى، حيث كانت ابنته وآمال معه. خروجٌ حمل معه الإقبال على الحياة، خروجٌ مفعم بالحيويّة والاحتفاء، وكأن العالَم كلّه كان بانتظار أن يخرج، ويستقبله، ويحتفي به.

ثمة امرأة عذبة يخفق القلب لحبّها، ثمّة ابنة يعيش نشوة أبوّته معها، ثمة عمل في الخارج بانتظاره، ثمّة ترتيبات لا بد من القيام بها، ثمة مستقبل حافل بالإنجازات، ثمة شهر عسل، ثمة خطة للسفر إلى بعض دول العالَم كما اقترحَتْ عليه آمال. قالت في إحدى زياراتها له في السجن: أحبّ الترحال كثيراً.. أحلم أن نجوب ما أمكننا بعض دول العالَم معاً، نبتعد عن المكان كثيراً.. كثيراً.. ثم نعود إليه بشوق.

قال: هو ذات الحلم الذي أحلمه، سأبذل كل ما بوسعي حتى نقوم بهذا الترحال الكبير.

عندما وصلوا إلى البيت، كان كل شيء على ما هو عليه رغم أن أناهيد كانت تحمل مفتاحاً، لكنّها قالت: حاولتُ كثيراً أن أجيء وأرتّب البيت، لكنّني لم أكن أتصوّر أن أدخل البيت وأنتَ لستَ فيه.

أدرك بأنّها أخذت خصلة الحساسيّة المرهفة عن أمّها، فقد كانت تتحسّس في بعض المواقف البسيطة، أو عندما تسمع بعض الكلمات، ولكنها كانت تحاول أن تخفي حساسيتها، وكان يرى أثر ذلك على قسمات وجهها. أحياناً عندما كان يتأخَّر نصف ساعة عن موعد العودة إلى البيت لتناول الغداء، أو العشاء، كانت تُهاتفه، فكان يطلب منها أن تأكل حتى ينهي عمله، وقد يتأخّر بعض الوقت. وكان يحدث ذلك عندما كان المحل يزدحم بالناس في بعض المناسبات، مثل العيد، فيضطر أن يبقى حتى يلبّي كافة الطلبات، وكان أحياناً يتأخّر ساعتَين عن موعده، فيرجع ويراها لم تأكل وتقول: حاولتُ أن آكل يا إدريس، لكن عندما نظرتُ إلى كرسيّك الفارغ، لم أستطع أن أتناول لقمة واحدة.

عند ذاك أدرك بأنّها تركت كل ثيابها في البيت، بما في ذلك الصيغة، حفاظاً على مشاعره، حتى لا يتحسّس ولو للحظةٍ واحدة بعد خروجه من السجن بأنَّها كانت ترتدي لزوجها

الجديد ذات الثياب التي كانت ترتديها له، أو تتزيَّن لزوجها بذات الذهب الذي كانت تتزيَّن به له.

قفز كلامها أيضاً إلى مخيّلته عندما زارته في السجن وقالت: لا أريد ان أتزوّج للزواج يا إدريس، أريد أن أتزوَّج لأضع حدّاً لمأساتي، وأنا أعلم بأن نسيانك لن يكون سهلاً عليّ، لكن لا خيار أمامي من أجل أن أحافظ على ابنتنا.

أنا امرأة وأعرف بأن المرأة مهما كانت واعية، فإنّها لا تكفي لتربية الأبناء، لا بدّ من نَفَسٍ رجولي في البيت، البيت الذي يكون بلا رجل، يكون بيتاً هشّاً مهما توهَّمتْ المرأة بأنّها قوية فيه. وجود الرجل في البيت سوف يكون مهمّاً جدّاً وأنا أقوم بتربية ابنتنا، بكل الأحوال لن يكون مثل الأب، ولا يمكن له أن يكون بمقام الأب، لكن وجوده أفضل بكثير من عدم وجوده لي ولها معاً. أنا محكومة بالواقع يا إدريس، أعذرني، فهذا أفضل الأمرَّين.

ليلة ثريّة

قرَّرتْ آمال أن تبقى برفقة أناهيد حتى يوم الغد، كذلك أحسَّت برغبةٍ في الحديث مع إدريس عن ترتيبات الزواج.

سهروا معاً حتى الثانية عشرةَ ليلاً، حينها نهضت أناهيد كي تنام، وتركتهما ساهرَين.

لبثا صامتَين زهاء نصف ساعة دون أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة، ثم رفع إدريس رأسه، عدل في جلسته، قال وهو ينظر ملياً إلى وجهها: لا بدّ أن أخبركِ بكل شيءٍ يا آمال حتى نبني أساس حياتنا الزوجية على الحقيقة، أو أنّك بعد أن تعرفينها، ترين بأنّها لا تناسبك وتقرّرين ما تشائين.

هزَّت رأسها ببطء عدَّة هزّات ولبثت صامتة تصغي إليه، فأخبرها بتفاصيل ما حدث معه منذ اليوم الأوّل الذي تعرَّف فيه على هناء، ثم زواجهما، وما جرى مع زوج أخته نجوى، وسبب زواج هناء للمرة الثانية، وفكرة الانتحار التي رأى نفسه مندفعاً إليها بعد خروجه من السجن ووصوله إلى البيت، لأنه رأى بأن كل شيءٍ قد تغيَّر، ولم يعد قادراً على الانسجام مع الواقع الجديد، ولكن في اللحظات الأخيرة، تراجع عن ذاك القرار، فقط بسبب أناهيد، عندما رآها وبدأ يعيش مشاعر أبوّته معها، وما أراد أن يفجعها بذاك الخبر الصاعق.

استطرد في الحديث بسجيَّةٍ كما لو أنّه يتحدَّث لنفسه، وهي تصغي إليه بعناية، تتعرَّف على مكنونات شخصيّته، وأخذت الساعة تجرّ الساعة، والحديث يجرّ الحديث حتى انتبها بأن ضوء الصباح أخذ يمتد من الشرفة إلى الداخل.

نظر إليها، تشابكَت نظراتهما، فأدركت أنّه يريد جواباً عمّا سمعته، وبعد نحو دقيقتَين من الصمت الذي خيَّم عليهما، قالت بثقةٍ: الآن تأكّدتُ بأن أساس بيتنا الزوجي أصبح أكثر متانةً يا إدريس. أحسَّ بنسمة نشوة سرت في أوصاله، وقال: أحيانا تأخذ الحياة منّا وتأخذ كأنها لن تعطينا شيئاً بعد ذلك أبداً، وأحياناً تعطي لنا وتعطي كأنها لن تأخذ منّا شيئاً بعد ذلك أبداً. ثم أردف وهو ينظر إلى صفحة وجهها الذي تحوَّل أمامه إلى منارة: يا إلهي كم أن الحب عظيم، كم أنّه يجعلنا نرتقي، نترفَّع عَن صغائر الحياة.

قالت: الحب قيمة عظيمة يا إدريس، سوف أستفيد كثيراً من تجربتك العميقة هذه في الحياة، من كل هذه التحوّلات التي واجهتها. ثم أردفت تقول: بعد أن أدخلتني إلى أجواء قصتك، لأوّل مرة انتابني شعورٌ بأنّني مقبلة على كتابة رواية ثانية، رواية تكون أنتَ بطلها، وأناهيد، وهناء، وأنا، وكل أولئك الأشخاص الذين تحدَّثت لي عنهم، كل تلك الأحداث التي وقعت، كنتَ تتحدَّث وأنا أحبُك الأحداث في مخيّلتي وأقول:

يا لي من امرأة محظوظة، زوج طيب، وفكرة رواية، ستكون أجمل هديّة تقدّمها لي بمناسبة زواجنا يا إدريس، إذا أذنتَ لي أن أكتبها كما هي دون أن أضيف أو أحذف منها شيئاً، سوف أكتبها كما رويتها لي.

***

بعد قليلٍ، تناهى صريرٌ من الباب، خرجت على إثره أناهيد من الغرفة وهي تتثاءب وتفرك عينَيها، وعندما رأتهما جالسَين وقد اقتربا من بعضهما أكثر مما ينبغي، قالت: ياه.. حتى الآن لم تناما..؟!

ابتسمت آمال بعذوبةٍ وقالت: أيّ نومٍ يا أناهيد، لقد كان لدينا ما هو أهم من النوم، الآن فقط يمكنني أن أحسدكِ على هكذا أب.

قالت أناهيد مبتسمة: حتى تعرفي قيمة أمّي، ما أرادت أن تفرّط به لغيركِ.

قال إدريس: ما أرادت أن تفرّط بها لغيري.

ثم دخلتا معاً إلى المطبخ وشرعتا في إعداد الفطور، في تلك اللحظات، راود آمال شعورٌ بأنّها موجودة في بيتها الزوجي، وأن أناهيد ضيفة، وسوف تعود إلى بيتها.

بعد تناول الفطور، خرجوا معاً بحسب الترتيب الذي أعدَّته أناهيد، وهو أن تذهب مع أبيها إلى بيتهم، ومن هناك تذهب برفقته ورفقة أمّها إلى بيت آمال لخطبتها رسمياً.

عندما وصلوا إلى العاصمة، اتَّجهت آمال على الفور إلى بيتها، ومضت أناهيد مع أبيها إلى البيت، راودته مشاعر غريبة وهو سوف يدخل بيتاً تعيش فيه هناء وقد غدت زوجة لرجلٍ آخَر، وكيف سينظر إلى ذاك الرجل، كيف سيصافحه، لم يكن يخطر في باله بأنه ذات يوم سيواجه مثل هذا الموقف، لكنه قرّر أن يتجاهل كل تلك المشاعر استجابة لرغبة أناهيد.

عند وصولهما إلى باب البيت، ضغطت أناهيد بسبابتها إلى جرس الباب، بعد قليلٍ انفتح وظهر رجلٌ أسمر البشرة، مدَّ يد المصافحة إليه وقال: أهلاً وسهلاً بك يا أبا أناهيد، وشكراً لتشريفك لنا.. تفضّل..

شكره وهو يصافحه ومدَّ خطواتٍ وئيدةٍ إلى الداخل، استقبلته هناء قائلةً: أهلاً ومرحباً بك يا أبا أناهيد.

جلسوا في غرفة الاستقبال على الأرائك، جال بنظره في البيت يتخيَّل بأن ابنته تربَّت وترعرعت في هذا البيت. نظر إلى شكيب، تخيَّل بأنه قد ربى ابنته سنة بعد سنة، تُرى كم من مرةٍ حملها على يدَيه؟ كم من مرَّةٍ مرضت وأخذها إلى الطبيب؟

كم من مرة اشترى لها ثياباً؟ اشترى لها ما تحتاج؟ كم من مرةٍ؟ وكم من مرةٍ حتى بلغت هذا العمر؟

انتابه شعورٌ بالتقدير لذاك الرجل، وهو صاحب فضلٍ جمٍّ عليه، إلى جانب ذلك، اعتراه شعورٌ آخَر تداخَل مع الشعور الأوَّل وهو أنّه كان قد أودع هناء أمانةً لديه، فحفظ الأمانة، وصانها، وأحسن إليها.

بعد تناول الغداء خرج إدريس برفقة هناء وأناهيد إلى بيت آمال الذي كان مجاوراً، حيث كانت آمال مع أهلها بانتظارهم.

الفهرس

الفصل الأول..5
نجوى..5
قعر جب 13
ضريبة المهجع..19
رائحة الزوجة 25
الفصل الثاني 40
إشراقة أناهيد 40
زيارة هناء..49
الفصل الثالث 56
ثمن الحماقة 56
خالد 59
طاهر 65
نجاة ابن أخت الضابط 80
طبيب الأسنان وزوجته الثانية 84
عنف اكتئابي 89
شغلها الشاغل 93
الفصل الرابع..98
غسان 98
اغتيال الهيبة..109
خطيب 116
الحصانة..125
حكمة فاتح 131
الشرخ 134
الفصل الخامس 136

الدفتر 136
معاذ 141
حمية الحريّة 151
منام الشاهد 155
الفصل السادس 158
فرصة الصفر 158
ظاهرة مرهج 162
تحرّش مضاض 165
آمال 174
مأساة عقيل 181
الفصل السابع 185
عنف لفظي 185
اعتصام 192
ضحكة المحافظ 198
التوأمان 202
الفصل الثامن 206
زيارات عيديّة 206
خروج مختلف 208
ليلة ثريّة 211
الفهرس 216

اسكرايب
للنشر والتوزيع